أخبار إسحاق بن إبراهيم الموصلي

كنيته

ويُكنى أبا محمد . وكان الرشيدُ يولَع به فيكنِّيه أبا صَفوان . وهذه كنيةٌ أوقعها عليه إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب مَزْحاً .

منزلته فى العلم والغناء

وموضعه من العِلْم ، ومكانُه من الأدب ، ومحلُّه من الرِّواية ، وتقدُّمه فى الشعر ، ومنزلته فى سائر المَجالس ، أشهرُ من أن يُدلَّ عليه فيها بوصف . أما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يوسم به ، وإن كاب الغالبَ عليه وعلى ما كان يُحسنه ، فإنه كان له فى سائر أدواته نُظراء وأكفاء ، ولم يكن له فى هذا نَظير ، لَحِق بمن مضى فيه وسَبق من قد بَقِى ، فهو إمام أهل صِناعته وقُدوتهم ورأسُهم ومعلِّمهم ، وكان يكره أن يُنْسبَ إلى الغِناء غايةَ الكراهية .

تمناه المأمون للقضاء

وذُكر أن المأمون قال : لولا ما سبَق لإسحاق على ألسنة النَّاس وشُهرته عندهم من الغِناء لوليتُه القَضاء بحَضرتى ؛ فإنه أعفُّ وأصدق وأكثر ديناً وأمانةً من هؤلاء القُضاة .

مشايخه فى الحديث

وروَى الحديثَ ولَقِى أهله ؛ مثل : مالك ، وسُفيان بن عُيينة ، وهُشيم بن بَشير ، وإبراهيم بن سَعد ، وأبى مُعاوية الضَّرير ، ورَوْح بن عُبادة ، وغيرهم من شُيوخ العِراق والحجاز .

ضنه بالغناء وما أحدثه فيه

وكان مع كراهيته الغناء أضَنَّ خَلق اللهِ به ، وأشدَّهم بُخْلاً به على كل أحد ، حتى على جواريه وغِلْمانه ومَن يأخذ عنه ويُنسب إليه ، فضلاً عن غيرهم . وصحَّح أجناس الغِناء وطرائقه وميَّزها تمييزاً لم يَقْدر عليه أحد بعده .

أمه

وأُم إسحاق امرأةٌ من أهل الرىّ ، يقال لها : شاهك .

نهجه فى يومه

وحكى إسحاق قال : بقيتُ دهراً من دَهرى أُغلِّس كلَّ يوم إلى هُشيم فأسمع منه ، ثم أصير إلى الكسائى ، والفرّاء ، وابن غَزَالة ، فأقرأ عليه جزءا من القرآن . ثم آتى منصوراً ، المعروف بزَلْزل ، فيُضار بنى طَرْقَيْن[1] أو ثلاثة ، ثم آتى عاتكة بنت شُهدة فآخذ منها صوتاً أو صوتين ، ثم آتى الأصمعىّ وأبا عُبيدة فأُناشدهما وأُحدّثهما وأستفيد منهما ، ثم أصير إلى أبى فأُعْلِمه ماصَنعتُ ومَن لقيتُ وما أخذتُ، وأتغدَّى معه ، فإذا كان العِشاء صرتُ إلى أمير المؤمنين الرشيد .

رأى الواثق فيه

وحُكى أن الواثق بالله كان يقول : ما غنّانى إسحاقُ قطُّ إلا ظننتُ أنه قد قد زيد فى مُلْكى ، ولا سمعتُه قطُّ يغنِّى غناء ابن سُريج إلّا ظننتُ أن ابن سُريج فيه نُشِر ، وإنّه ليحضُرنى غيره ، اذا لم يكن حاضراً، فيتقدمه عندى بطِيب الصوت ، حتى إذا اجتمعا عندى رأيتُ إسحاق يعلو ورأيت من ظننتُ أنه يتقدَّمه ينقُص . وإنّ اسحاق لنعمةٌ من نِعم المُلوك التى لا يُخصُّ[2] أحدٌ بمثلها ، ولو أن العُمر والشَّباب والنَّشاط مما يُشترى لاشتريتُهن له بشطر مُلكى .

هو والمأمون وقد سأله الدخول مع العلماء ثم مع الفقهاء

وذُكر أنه سأل إسحاقُ الموصلىّ المأمونَ أن يكون دُخوله إليه مع أهل العِلْم والأدب والرُّواة ، لا مع المُغنِّين، فإذا أراد الغناء غنَّاه . فأجابه إلى ذلك . ثم سأله بعد مُدة طويلة أن يأذن له فى الدُّخول مع الفقهاء ، فأذن له . فقيل: إنَّ محمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر وعَلّويه ومُخارقاً كانوا فى حُجرة لهم جلوساً ينتظرون جُلوس المأمون لهم وخروج الناس من عنده ، إذ دخل القاضى يَحيى بن أكثم وعليه سَواده وطويلتُه[3] ويده فى يد إسحاق يُماشيه ، حتى جلس معه بين يدى المأمون. فكاد عَلّويه أن يُجَنّ ، وقال : يا قوم ، سمعتُم بأعجب من هذا ! يدخُل قاضى القُضاة ويدُه فى يد مُغنٍّ حتى يجلسا بين يدى الخليفة ! ثم مضتْ مدةٌ على ذلك . فسأل إسحاق

(١) الطرق : الصوت والنغمة . (٢) فى بعض أصول الأغانى : « لم نحظ » .
(٣) السواد : شعار العباسيين . والطويلة : القلنسوة .

المأمون فى لُبس السَّواد يومَ الجمعة والصلاة معه فى المَقْصُورة . فضحك المأمونُ وقال : ولا كُل هذا يإسحاق ! وقد اشتريتُ منك هذه المسألة بمائة ألف درهم، وأمر له بها .

شأنه بين المغنين فى حضرة الواثق

وذُكر أن المُغنِّين كانوا يحضُرون مجلس الواثق وعيدانُهم معهم ، إلَّا إسحاق فإنه يحضُر بلا عُود للشُّرب والمُجالسة . فإذا أَمره الخليفةُ أن يُغنّى أُحضر له عُود ، وإذا فَرغ وغنَّى سُلّ من بين يديه إلى أن يطلُبه .

وكان الواثق كثيراً ما يكنِّيه ، رفعاً له أَن يدعُوَه باسمه . وكان إذا غَنَّى وفَرغ الخليفةُ من شرب قَدَحه قطع الغناء ولم يُعِدْ منه حرفاً، إلَّا أن يكون فى بعض بيتٍ فيُتمه ، ثم يقطع ويَضع العود من يده .

غنى المأمون فى شعر لذى الرمة فأجازه وحديث ذلك

وحَكى إسحاق قال :

خرجت مَخْموراً من دارى أتنسَّم الهواء ، فمررتُ برجُل يُنشد رجلاً معه لذى الرُّمَّة :

ألم تَعلمى يامَىُّ أنِّى وبيننا ... مَهَاوٍ لطَرْف العَيْن فيهنَّ[1] مَطْمَحُ
ذكرتكِ أن مرَّت بنا[2] أُمُّ شادنٍ ... أمامَ المَطايا تَشرئبُّ وتَسْنح
من المُؤْلِفات الرَّمْلَ أدماءُ حُرَّةٌ ... شُعاعُ الضُّحَى فى مَتنها يَتوضَّح
هى الشِّبهُ أعطافاً وجيداً ومُقْلةً ... ومَيَّةُ منها بعدُ أَبهى وأَمْلح
لئن كانت الدُّنيا علىّ كما أَرى ... تَباريحَ من مَىٍّ فَللموتُ أَروح

فأَعجبنى وصنعتُ فيه لحناً غنَّيت به المأمونَ ، فأخذتُ منه مائة ألف دِرهم .

هو وإبراهيم بن المهدى فى صوت غناه عند الرشيد

وحكى إسحاقُ الموصلى قال :

كنتُ عند الرّشيد يوماً وعنده نُدماؤه وخاصّته وإبراهيم بن المهدى ، فقال الرشيد : غَنِّ :

(١) فى غير التجريد : « مطرح » مكان « مطمح » . (٢) أم شادن : الظبية .

شَربتُ مُدامةً وسُقيتُ أُخرى وراح المُنْتَشون وما أُنْتَشيتُ

وقبل هذا البيت :

أعاذلُ ما كَبِرتُ وفىَّ مَلْهًى ولو أدركتُ غايتكِ أُنتهيتُ

فغنَّيتُه . فأقبل علىّ إبراهيم بن المهـــدىّ فقال لى : ما أصبتَ يإسحاق ولا أحسنت ! فقلت: ليس هـذا مما تَعرفه ولا تُحسنه ! وإن شئتَ فغنِّه ، فإن لم أجدك أنك تُخطىء فيـه منذ ابتدائك إلى انتهائك فدَمِى حلالٌ . ثم أقبلتُ على الرّشيد فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذه صناعتى وصناعة أبى ، وهى التى قَرَّبتنا منك واستخدمتنا لك ، فإذا نازعنا أحد بلا عِلْم لم نجد بُدًّا من الإيضاح والذَّبِّ . فقال : لا غَرْو ولا لَوْم عليك . وقام الرشيدُ ليبول ، فأقبل علىّ إبراهيم بن المهدىّ وقال : يإسحاق ، ويحك ! تجـترىء علىّ وتقول لى ما قلتَ يابن الفـاعلة ! لا يَكْنى . فدخلنى ما لم أملك نفسى معه ، فقلتُ له : أنت تَشْتُمنى ولا أقدر على إجابتك، وأنت ابن الخليفة ، ولولا ذلك لكنت أقول لك: يابن الزانية ، كما قلت لى: يابن الزانيـة ! أوَتُرانى كنت لا أُحسن أن أقول: يابن الزانية ، ولـكن قَولى فى ذمك يَنصرف كلُّه إلى خالك الأعلم[1]، ولولاك لذكرتُ صناعته ومَذهبه — قال إسحاق : وكان بيطاراً — قال : ثم سكتُّ وعلمت أن إبراهيم سـوف يشكونى إلى الرشيد ، وسوف يسأل مَن يحضُر عما جرى، فيُخبرونه . فتلافيتُ ذلك بأن قلت : أنت تظُن أن الخِلافة تصير لك ، فلا تزال تتهدّدنى بذلك وتُعادينى كما تُعادى سائر أولياء أخيك حسداً له ولولده على الأمر ، وأنت تَضْعُف عنه وعنهم ، وتَستخف بأوليائهم تشفِّياً ، وأرجو ألّا يُخرجها الله عن الرّشيد وولده ، وأن يقتُلَك دونها . فإن صارت إليك — والعياذُ بالله من ذلك — فحرام علىّ يومئذ العيشُ ، والموتُ أطيبُ لى من الحياة معك ، فاصنع حينئذٍ ما بدا لك . قال : فلما خَرج الرشـيد

(١) الأعلم : المشقوق الشفة العليا .

وَثب إبراهيم وجلس بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين ، شَتمنى وذكر أُمى واستخفّ بى . فغضب وقال لى : ويلك ! ما تقول ؟ قلت : لا أعلم ، فسَلْ مَن حضر . فأقبل على مَسرور وحُنَين وسألهما عن القِصَّة — فجعلا يُخبرانه ووجهُه يتربَّد[1] إلى أن انتهيا إلى ذكر الخلافة — فسُرِّى عنه ورجع لونه . وقال لإبراهيم : لا ذَنب له ، شتمتَه فعرَّفك أنه لا يَقدر على جوابك ، ارجع إلى موضعك وأَمسك عن هذا . فلما انقضى المجلسُ وانصرف الناس أمر بألّا أبرح . وخرج كلُّ من حضر حتى لم يَبْق غيرى . فساء ظنِّى وأهمَّتنى نفسى . فأقبل علىَّ وقال : يإسحاق ، أترُانى لم أفهم قولك ومرادك ! قد والله زنَّيته ثلاث مرات . أترانى لا أعرف وقائعك وأقدامَك وأين ذهبت ! ويلك ! لا تَعُدْ . حدِّثنى عنك : لو ضربك إبراهيم أكنتُ أقتصُّ لك منه فأضربه يا جاهل وهو أخى ! أتراه لو أمر غلمانه فقتلوك أكنتُ أقتله بك ! فقلت : والله يا أمير المؤمنين قد والله قتلتنى بهذا الكلام ، ولئن بلغه ليقتلنِّى ، وما أشك فى أنه قد بلغه الآن . فصاح بمَسرور وقال : علىَّ يإبراهيم . فأُحضر . فقال لى: قُم فانصرف . فقلتُ لجماعة من الخدم، وكُلهم كان لى محبًّا و إلىَّ مائلاً مُطيعاً : أخبرونى بما يَجرى من غدٍ . فأَخبرونى أنه لما دخل عليه و بَّخه وجَهَّله وقال : أتستخفُّ بخادمى وصَنيعتى، وابن خادمى وصَنيعتى، وصنيعة أبى فى مَجلسى ، وتُقدم على ذلك ، وتستخفُّ بمجلسى وحَضرتى ! هاه ! هاه ! هاه ! أتُقدم على هذا وأمثاله ! وأنت مالك وللغِناء ؟ وما يُدريك ما هو ؟ ومن أخذك به وطارحك إياه حتى تتوهّم أنك تبلُغ مبلغ إسحاق الذى غُذى به وعُلِّمه وهو من صِناعته ؟ ثم تظُن أنك تُخطِّئه فيما لا تَدريه ، ويدعوك إلى إقامة الحُجة عليه فلا تثبُت لذلك وتَعتصم بشَتْمه ، هذا مما يدُل على السُّقوط وضَعف العقل وسُوء الأدب مِن دخولك فيما لا يَنْسُبك إلا إلى فرط الجهل . ألا تَعلم — ويحك — أن هذا سُوء أدب وقلّة معرفة وقلّة مُبالاة بالخطأ والتكذيب

(١) يتربد : يتغير .

والردِّ القبيح ! ثم قال : والله العظيم وحقِّ رسوله، و إلا فأنا برىء من المهدى، لئن أصابه أحدٌ بسوء، أو سقط عليه حجر من السَّماء، أو سقط من دابَّته ، أو سقط عليه سَقف ، أو مات فجأة ، لأقتلنّك به . والله ، والله ، والله ، وأنت أعلم ، فلا تعرضْ له . قُم الآن فاخرج . فخرَج وقد كاد أن يموت .

فلما كان بعد ذلك دخلتُ عليه و إبراهيمُ عنده، فجعل ينظرُ إليه امرةً و إلىَّ مرة و يضْحَك ، ثم قال له : إنى أعلم محبَّتك لإسحاق وميلَك إليه و إلى الأخذ عنه ، وأن هـذا لا يجيئك من جهته كما تُريد إلا بعد أن يرضَى ، والرِّضى لا يكون بمَكروه ، ولكن أحسن إليه وأَكْرمه واعرف حقَّه و برَّه وصِلْه ، فإذا فعلتَ ثم خالف ما تهواه عاقبتُه بيدٍ مستطيلة مُنبسطة ولسانٍ مُنْطلق . ثم قال لى : قُم إلى مولاك وابن مولاك فقبِّل رَأْسَه . فقمتُ إليه وقام إلىَّ وأَصلح الرَّشيد بيننا .

صنع فى بيتين ودع بهما الفضل بن يحيى غناء فأجازه

وحكى إسحاق الموصلى قال :

لمَّا أراد الفَضل بن يَحيى بن خالد الخُروج إلى خُراسان ودَّعتُه ، ثم أنشدته بعد التَّوديع :

فراقُك مثلُ فِراق الحياةِ ... وفَقْدُك مثلُ افتقاد الدِّيَمْ
عليك السَّلامُ فكم من وفاءٍ ... أُفارق فيك وكم مِن كَرَم

قال : فضمَّنى إليه وأمر لى بألف دينار وقال : يا أبا محمد ، لو خلَّيتَ هذين البيتَين بصَنعة وأودعتَهما مَن يَصحبنا لأهديتَ لى بذلك أُنساً وأذكرتَنى بنفسك . ففعلتُ ذلك وطرحتُه على بعض المُغنِّين . فأمر لى بألف دينار . وكان كتابُه لا يزال يَرد علىَّ ومعه ألفُ دينار ، يصلنى بذلك كُلَّما غُنِّى بهذا الصوت .

أنشد المعتصم بهنئه بالخلافة فأجازه

وحكى إسحاق قال :

لمَّا ولى المُعتصم الخلافةَ دخلتُ إليه فى جُملة الجُلساء والشُّعراء ، فهنَّأه القوم نَثْراً ونظماً ؛ وهو ينظُر إلىَّ مُستنطقاً ، فأنشدتُه :

لاح بالمَفْرق منك القَتِيرُ ... وذوى غُصْنُ الشَّباب النَّضِيرُ

هزئتْ أسماءُ منِّى وقالت ... أنت يا ابن المَوصلىِّ كبِير

ورأت شَيباً عَلانى[1] فصدَّت ... وابنُ ستِّين بشَيْبٍ جَدير

قد يُفَلُّ السَّيفُ وهو جُرَازٌ ... ويَصولُ الليثُ وهو[2] عَقِير

يا بَنى العبَّاس أنتم شِفاءٌ ... وضِياءٌ للقُلوب ونُور

أنتُمُ أهلُ الخِلافة فينا ... ولكم مِنْبرُها والسَّرير

لا يزال المُلك فيكم مَدَى الدَّهْـ ... ـر مُقيماً ما أقام[3] ثَبِير

وأبو إسحاق خيرُ إمامٍ ... ما له فى العالَمين نَظِير

ما له فيما يَريش ويَبْرى ... غير تَوفيق الإله وَزِير

واضح الغُرَّة[4] للخير فيه ... حين يَبْدو شاهدٌ وبشِير

زانه هَدْىٌ تُقًى وجلالٌ ... وعفافٌ وَوفاء[5] وخِير

لو تُبارى جُودَه الريحُ يوماً ... نَزحت وهى طَليحٌ[6] حَسِير

قال : فأمر لى بجائزةٍ فضَّلني فيها على الجماعة .

هو وعلويه فى مجلس الفضل ابن الربيع

وحكى أحمد بن يحيى المكى قال :

دعانى الفضلُ بن الرَّبيع ودعا عَلَّويه ومُخارقاً ، وذلك فى أيَّام المأمون بعد

(١) فى بعض أصول الأغانى : « برأسى » مكان « علانى » .

(٢) يفل : يثلم . وجراز : قاطع . وعقير : مجروح .

(٣) ثبير : جبل بمكة . (٤) فى بعض أصول الأغانى : « والخير » مكان « للخير » .

(٥) فى بعض أصول الأغانى : « ووقار » . (٦) طليح : هزيل تعب . وحسير : كليل . والرواية فى بعض أصول الأغانى : « نزعت وهى . . . » .

رجوعه له ورضاه عنه ، إلّا أن حاله كانت ناقصةً مُتضعضعة . فلما اجتمعنا عنده كَتب إلى إسحاق الموصلىّ يسأله أن يصير إليه ويُعلمه الحالَ فى اجتماعنا عنده . فكتب إليه : لا تنتظرونى بالأكل فقد أكلتُ ، وأنا أصير إليكم بعد ساعة . فأكلنا وجلسنا نَشرب حتى قَرُب الظهر[1] . ثم وافَى إسحاق وجاء غلامُه بقَطْرميز[2] نَبيذ فَوضعه ناحيةً ، وأمر صاحب الشَّراب بإسقائه منه . وكان عَلّويه يُغنِّى الفضلَ صوتاً . فقال له إسحاق : يا أبا الحسن ، أخطأت فى أداء هذا الصوت وأنا أُصلحه لك . فجُن عَلّويه واغتاظ وقامت قيامتُه . فأقبل إسحاق على عَلّويه وقال له : يا حبيبى ، ما أردتُ الوضعَ منك بما قلتُه لك ، وإنما أردتُ تَهذيبك وتَقويمك لأنك مَنْسوب الخطأ والصواب إلى أبى ، فإن كرهتَ ذلك تركتُك وقلت لك : أجملتَ وأحسنت ! فقال عَلّويه : والله ما أردتَ هذا ، ولا أردتَ إلّا ما لا تتركه أبداً من سوء عشرتك ! أخبرنى عنك حين تجىء هذا الوقتَ لمّا دعاك الأميرُ وعَرّفك أنه قد نَشط للاصطباح ، فما حملك على الترفُّع عليه فى مُباكرته وخِدْمته ؟ أشُغل شَغلك عنه مع صَنائعه عندك ؟ ولا يَقطعك عنه قاطع إلّا أن يكون الخليفةُ ! ثم تَجيئه ومعك قَطْرَميز نَبيذ ترفُّعاً عن شرابه كما ترفَّعت عن طَعامه ومُجالسته ، إلا كما تشتهى وحين تَنشط ، كما يَفعل الأكفاء ، بل تَزيد على فِعل الأكفاء ! ثم تَعمد إلى صوت قد اُشتهاه واُقترحه وسَمعه كُلُّ مَن حضر ، فما عابه منهم أحد ، فتَعيبه ليتمّ تَنغيصُك إياه لذّته ! أمَا والله لو الفضلُ بن يحيى أو أخوه جَعفر ، لا والله بل بعضُ أتباعهم ، دعاك إلى مثل ما دعاك إليه الأمير ، لبادرتَ وما تأخّرت ولا اُعتذرت ! فأمسك الفضلُ عن الجواب إعجاباً بما خاطب به عَلّويه إسحاقَ : فقال له إسحاق : أمّا ما ذكرتَه من تأخُّرى عنه إلى هـذا الوقت الذى ذكرتَ

(١) هذه رواية الأصل . والذى فى الأغانى : « العصر » .

(٢) القطرميز : القلة الكبيرة من الزجاج .

وحضرتُ فيه ، فهو يعلم أنِّى لا أتأخّر فيه إلّا بعائق قاطع ، فإن وَثق بذلك منّى وإلّا ذكرتُ له الحُجة سرًّا من حيث لا يكون لك ولا لغيرك فيه مَدخل . وأما ترفُّعى عنه فكيف أترفَّع عنه وأنا أنتسب إلى صَنائعه وأستمنحه وأعيشُ فى فَضله مذ كنت أنا وأبى ، وهذا تَضريب[1] لا أُبالى به منك . وأما حَملى النَّبيذ معى ، فإن لى فى النَّبيذ شَرطاً من طَعمه وريحه إن لم أَجده لم أقدر على الشُّرب وتنغَّص علىّ يومئذ ، وإنما حملتُه معى ليتم نَشاطى فيَنتفع بى . وأمَّا طَعنى على ما اُختاره ، فإنّى لم أَطعن على اُختياره ، وإنما أردتُ تَقويمك ، ولستَ والله ترانى مُتتبِّعاً لك بعد هذا اليوم ولا مُقوِّماً شيئاً من خطئك ، وأنا أُغنى له — أعزّه الله — هذا الصوتَ فيعلم وتَعلم ويَعلم الحاضرون أنك قد أخطأت فيه وقصَّرت . وأما البرامكة فأمرهم أَشهر من أن أُجحده ، وإنى لحقيقٌ فيه بالمَعذرة ، وأَحرى أن أشكرهم على صَنيعهم وبأن أُذيعه وأنشُره ، وذلك والله أقلُّ ما يَستحقّونه منّى . ثم أقبل على الفَضل — وقد غاظه مدحُه للبرامكة — وقال : اُسمع منّى شيئاً أُخبرك به مما فعلوه بى ، ليس بكثير فى صنائعهم عندى ولا عند أبى قَبلى ، فإن وجدت لى فى ذلك عُذراً وإلا فلُمْ : كنتُ فى اُبتداء أمرى نازلاً مع أبى فى داره ، فكان لا يزال يَجرى بين غِلمانى وغلمانه وجَوارىّ وجواريه الخُصومة ، كما يجرى بين هذه الطَّبقات ، فيشكونهم إليه ، فأتبيّن الضَّجر والتنكُّر فى وجهه . فاستأجرتُ داراً بقُربه اُنتقلت إليها أنا وغِلمانى وجوارى ، وكانت داراً واسعة ، فلم أَرْضَ ما معى من الآلة لها ولا لمن يدخل إلىّ من إخوانى أن يرَوْا مثله عندى ، ففكرتُ فى ذلك وكيف أَصنع فيه،وزاد فِكرى حتى خَطر بقلبى قُبح الأُحدوثة من نزول مثلى فى دارٍ بأُجرة ، ولا آمن فى وقت أن يستأذن علىّ صاحبُ دارى وعندى من أحتشمه ولا يعلم حالى ، فيقول لى غُلامى : صاحب دارك على الباب . أو يوجِّه

(١) التضريب : الإغراء .

فى وقتٍ فيطلُب أُجرة الدار وعنـــدى من أَحتشمه ، فضـاق بذلك صَدرى ضِيقاً شديداً حتى جاوز الحدّ . فأمرتُ غلامى أن يُسرج لى حماراً كان عندى لأمضىَ إلى الصحراء أَتفرّج فيها ممّـا دخلنى . فأَسرجه . فركبتُ برداء ونَعل . فأَفضَى بى المسيرُ ، وأنا مفكر لا أَميز الطريق التى أسلُك فيهـا ، حتى هجم بى على باب يحيى ابن خالد ، فوثب غِلْمانُه وقالوا : أين هذا الطريق ؟ فقلت : إلى الوزير . فدَخلوا واُستأذنوا لى ، وخَرج الحـاجبُ فأمرنى بالدخول ، و بقيتُ خَجِلاً قد وقعتُ فى أمرين قبيحَيْن : إن دخلتُ عليه فى رداء ونعل وأَعلمتُه أنِّى قصدته فى تلك الحال كان سُوء أدب ، و إن قلتُ له : كنتُ مُجتازاً ولم أقصدك فجعلتُك طريقاً ، كان قبيحاً . ثم عزمتُ على صِدْقه فدخلتُ . فلما رآنى تبسَّم وقال : ما هذا الزّى يا أبا محمد ! احتسبنا لك بالبرّ والقَصد والتفقُّد ، ثم علمنا أنك جعلتَنا طريقاً . فقلت : لا والله أيها الوزير ولـكنّى أصدُقك . قال : هات . فأخبرتُه القصةَ من أولها إلى آخرها . فقال : هذا حقٌّ مستوٍ ، أفهـذا شَغل قلبك ؟ فقلت : إى والله ! وزاد فقال : لا تَشغل قلبك بهذا ، ياغلام ، ردُّوا حمارَه وهاتُوا له خِلْعة . فجاءونى بخِلعة تامّة من ثيابه فلبستُها ، ودعا بالطَّعـــام فأكلتُ ، ووُضع النبيذ فشربتُ وشرب ، فغنّيتُه . ودعا فى وسط ذلك بدواة فكتب أربع رِقاع ظننتُ بعضَها جائزة لى ، فإذا هو قد دعا بعضَ وُكلائه فدَفع إليـــه الرِّقاع وسارَّه بشىء ، فزاد طمعى فى الجائزة . ومضى الرجلُ وجلسنا نَشرب وأنا أنتظر ، فلا أرى شيئاً إلى العَتَمة . ثم اُتكأ يحيى فنام ، وقمتُ من عنده منكسراً خائباً ، فخرجتُ وقُدِّم إلىَّ حمارى . فلما تجاوزتُ الدار قال لى غُلامى : إلى أين تَمضى ؟ قلت : إلى البيت . قال : قد والله بِيعت دارُك وأُشهد على صاحبها واُبتيع الدَّرب كُلُّه ووُزن ثمنُه ، والمُشترى جالسٌ على بابك ينتظرُك ليُعرِّفك ، وأظُنه اُبتيع ذلك كُله للسُّلطان ، لأنى رأيتُ الأَمر فى عَجلته واستحثاثه أمراً سلطانيًّا . فوقعتُ من ذلك فيما لم يكن فى حِسابى ،

وأنا لا أدرى ما أعمل . فلما نزلتُ على باب دارى إذا أنا بالوكيل الذى سارّه الوزير يحيى قد قام إلىَّ فقال : أدخل دارَك حتى أدخل إليك فى أمر أحتاج فيه إلى مُخاطبتك . فطابتْ نفسى بذلك ، فدخلتُ . فأقرأنى الكتاب وتوقيعَ يحيى : يُطلق لأبى محمد مائة ألف درهم يُبتاع له بها دارُه وجميع ما يُجاورها ويُلاصقها . والتوقيعُ الثانى إلى ابنه الفَضل : قد أمرتُ لأبى محمد بمائة ألف درهم يُبتاع له بها دارُه ، فأَطلقْ له مثلَها ليُنفقها على إصلاح الدار كما يريدو بنائها كما يَشتهى . والتوقيع الثالث إلى جعفر : قد أمرتُ لأبى محمد إسحاق بمائة ألف درهم يُبتاع له بها منزل يَسكنه ، وأمر له أخوك بمائة ألف درهم يُنفقها على بنائها ومَرمَّتها على مايريد ، فأطلق له أنت مائة ألف درهم يُبتاع له بها فَرش لمنزله .والتوقيع الرابع إلى محمد : قد أمرت أنا وأخواك لأبى محمد إسحاق بثلثمائة ألف درهم لمنزل يَبتاعه ، ونَفقة يُنفقها عليه ، وفَرش يَبتذله فيه ، فأُمر له بمائة ألف دِرهم يَصرفها فى سائر نَفقته . وقال لى الوكيل : قد حملتُ المال فأُبتعتُ كُل شىء جاورك بتسعين ألف درهم ، وهذه كُتب الأبتياعات باسمى والإقرار لك . وهذا المال بُورك لك فيه فاقْبضه . فقَبضتُه وأصبحتُ أحسن حالاً من أبى فى منزلى وفَرشى وآلتى ، ولا والله ما هذا بأكبر شىء فَعلوه معى ، أفأُلام على شكرهم ! فبكى الفضلُ ابن الرّبيع وكُل من حضر وقالوا : لا والله لا تُلام على شكر هؤلاء .

ثم قال له الفضل : بحياتى غَنِّ الصوتَ ولا تَبخل على أبى الحَسن عَلّويه بأن تُقَوِّمه له . فقال : أفعل . فغنّاه ، وتبيّن علّويه أنه كما قال . فقام فقبَّل رأسه وقال : أنت أُستاذنا وابن أُستاذنا وأولى بتقويمنا واحتمالنا من كل أحد . وردَّده إسحاق مراتٍ حتى اُستوى لعَلّويْه .

ذكره الواثق بالشيب ، فبكى وقال شعراً غنى فيه

وحكى إسحاق الموصلى قال :

قال لى الواثق : لقد ضَحك الشَّيب فى عارضَيْك . فقلت : نعم ، وبكيتُ . ثم قلت أبياتاً فى الوقت وغنّيتُ فيها ، وهى :

تولَّى شبابُك إلَّا قليلَا وحَلَّ المَشيبُ فصبراً جميلاَ
كفى حَزناً بفِراق الصِّبَا وإن أصبح الشَّيبُ منه بَديلا
ولما رأى الغانياتُ المَشيـ ـبَ أغضينَ دونك طَرْفاً كليلا
سأندُب عهداً مضَى للصِّبا وأبكى الشَّبابَ بُكاءً طَويلا

قال : فبكى الواثق وحَزن وقال : والله لو قدرتُ على رَدِّ شبابك لفعلتُ ولو بشَطْر مُلكى . فلم يكن لكلامه عندى جواب إلا تَقبيل البِساط بين يديه .

غير الأصمعى رأيه فى شعر علم أنه له

وحكى إسحاق قال :

قلتُ فى ليلة من اللّيالى :

هل إلى نظرةٍ إليكِ سبيلُ يُرْوَ[1] منها الصَّدَى ويُشفَى الغَليلُ
إن ما قَلَّ منك يكثرُ عندى وكثيرٌ ممن تُحب القليل

فلما أصبحت أنشدتُهما الأصمعى ، فقال : هذا الدِّيباجُ الخُسْروانىّ[2] ! هذا الوشى الإسكندرانى ! لمن هذا ؟ فقلتُ : إنه لُبن ليلته . فتبيّنتُ الحَسد فى وجهه وقال : أفسدته ! أفسدته ! أما إنّ التوليد فيه بيّن .

بينه وبين على ابن يحيى فى معنى كان يستجيده

وذكر علىّ بن يحيى أن إسحاق الموصلى كان يُعجب بمعنى هذين البيتين المَذكورين ويكرره فى شعره ويرى أنه ما سُبق اليه . فمن ذلك قوله :

أيها الظَّبى الغَريرُ هل لنا منك مُجيرُ
إن ما نوَّلْتنى منـ ـك وإن قَلّ كثير

قال : فقلت له : إنك سُبقتَ إلى هذا المعنى . فقال : ما علمتُ أن أحداً سَبقنى إليه . فأنشدتُه لأعرابى من بنى عُقيل :

---

(١) جزم الفعل هنا لضرورة الشعر .

(٢) نسبة إلى خسروشاه ، من الأكاسرة ، وكان ينسب إليه نوع من الثياب .

قِفى ودِّعينـــا يا مُليحَ بنَظرةٍ فقـد حان منّا يا مُليح رَحيـل
أليس قليـلاً نظرةٌ إن نَظرتُهـا إليكِ وكَلّا ليس منك قَليـل
عُقيليّـةٌ أمّا مَلاثُ (١) إزارها فَدِعْصٌ (٢) وأمّا خَصْرها فنَحيل
أيا جنّـة الدُّنيـا ويا غاية المُنَى ويا سُؤْل نَفْسى هل إليك سَبيل
أراجعـةٌ نَفسى إلىّ فأغتـدى مع الرّكْب (٣) لم يُكْتب عليكِ قَتيل
فما كُلَّ يوم لى بأرضك حاجةٌ ولا كُلَّ يوم لى إليـك رسول

قال : فحلف أنه ما سَمع بذلك قطُّ . قال على بن يحيى : صدق ، ما سَمِع بها .

نال جائزة الرشيد دون الأصمعى

وحكى الأصمعىُّ قال :

دخلتُ أنا وإسحاق بن إبراهيم الموصلىّ يوماً على الرَّشـيد ، فرأيتُه لَقِس النَّفْس (٤) فأنشده إسحاق :

وآمرةٍ بالبُخْل قلتُ لهـا أُقصِرى فـذلِك شىءٌ ما إليـــه سَبيلُ
أرى الناس خُلّان الـكريم ولا أرى بَخيـــلاً له حتى المَمات خَليـــل
وإنّى رأيتُ البُخـل يُزْرِى بأهْـله فأكرمتُ نفسى أن يُقال بَخيل
ومن خير خَلّات الفتى قد (٥) علمتِـه إذا نال خيراً أن يُقال نَبيـــل
فعالى فعـــالُ المُكثرين تجمُّـلاً ومالى كما قـد تعلمين قَليـــل
وكيف أخاف الفقر أو أُحرمُ الغِنى ورأىُ أمـير المُؤمنين جَميـــل

فقال الرشـيد : لا تَخف إن شاء الله . ثم قال : لله درُّ أبيات تأتينا بها ! ما أشد أُصولَها ! وأحسن فُصولَها ! وأقلَّ فُضولها ! وأمر له بخَمسين ألف درهم .

(١) ملاث الإزار : ما دون الخصر .
(٢) الدعص ، بالكسر : القور من الرمل . والرواية فى الأغانى : « فوعث » . والوعث : اللين .
(٣) فى الأغانى : « لم يقتل » .
(٤) لقس النفس : غثها .
(٥) الرواية فى الأغانى والأمالى (١ : ٧١) : « ومن خير حالات الفتى لوعلمته » .

فقال له إسحاق : وَصْفُك والله يا أمير المُؤمنين لشِعرى أحسنُ منه ، فعلام آخُذ الجائزة ! فضحك الرشيدُ وقال : أُجعلوا لهذا القول مائة ألف درهم .

قال الأصمعى : فعلمتُ يومئذ أن إسحاق أحذق بِصيد الدَّراهم منِّى .

حضر عند الفضل دخول ابن ابنه عبد الله عليه فقال شعراً سره به

وحكى إسحاق الموصلى قال :

كنتُ عند الفَضل بن الرَّبيع يوماً ، فدخل إليه ابنُ ابنه عبدُ الله بن العباس ابن الفَضل ، وهو طِفل ، وكان يَرِقّ عليه لأنّ والده مات فى حياته . فأجلسه فى حجره وضَمَّه إليه ودمعتْ عيناه ، فأنشأتُ أقول :

مَدَّ لك الله الحيـــاةَ مَدَّا ... حتى ترى [1] ابنك هذا جَدَّا
مُؤتزراً بمَجـــده [2] مُرَدَّى ... ثم يُفـدَّى مثل ما تُفـدَّى
أشـبه منك سُنةً [3] وخدَّا ... وشِيَماً مَرْضـيَّةً ومَجـــدا
كأنه أنت إذا تبـــدَّى ... شَمائـلاً محمـودةً وقَـدَّا

قال : فتبسَّم الفضلُ وقال : أَمتعنى الله بك أبا محمد ، فقد عُوضتُ من الحُزن سُروراً ، وتيمَّنتُ [4] بقولك ، وكذلك يكون إن شاء الله .

غضب عليه الفضل بسبب ابن دحمان فترضاه بشعر

وحكى إسحاق قال :

أتانى الزُّبير بن دَحْمان يوماً مُسلِّماً فاحتبستُه ، فقال لى : قد أَمرنى الفضلُ ابن الرَّبيع بالمَصير إليه . فقلت له :

أقِمْ يا أَبا العبّاس ويحكَ نَشربِ ... ونَلهو مع اللَّاهين يوماً ونَطربِ
إذا ما رأيتَ اليومَ قد بان خيرُه ... فخُذه بشُكْر واتْرك الفضلَ يَغضبِ

(١) فى الأغانى : « يكون » .
(٢) مؤتزر : من الإزار . ومردى : من الرداء . والرواية فى غير التجريد : « مؤزراً ... » .
(٣) السنة : الوجه .
(٤) فى الأغانى : « وتسليت » .

قال : فأقام عندى وشربْنا يَومنا . ثم صار إلى الفضل بن الرَّبيع ، فسأله عن سبب تأخيره عنه . فحدثه الحديثَ وأنشده الشعر . فغَضب علىّ وحوّل وجهه عنّى وأمر حاجبه عوناً ألّا يُدخلنى ، ولا يَستأذن لى عليه ، ولا يُوصل لى رقعة إليه . فقلت :

حرامٌ علىَّ الراحُ[1] ما دمتَ غضبانَا ... وما لم يَعُد عنِّى رضاك كما كانَا
فأَحسِنْ فإنِّى قد أسأتُ ولم تزَلْ ... تُعوِّدنى عند الإساءة إحسانا

قال : فأنشدتُه إياها . فرضى عنّى وعاد إلى ما كان عليه لى .

هو وجعفر ابن يحيى وغلامه نافذ وقد حجبه

وذُكر أن جعفر بن يحيى عَتب على إسحاق الموصلى فى عَدم غِشيانه له . فاعتذر بأنّ حاجبَه — وكان اسمه نافذاً — لا يأذن له عليه ، وأنه كلما جاء يَحجبه عنه . فقال له جعفر : إذا حَجبك فَنَلْ منه[2] . قال إسحاق : فأقمتُ أيّاماً ثم كتبتُ إلى جعفر :

جُعلتُ فداءك من كُل سُوءٍ ... إلى حُسن رأيك أشكو أُناسَا
يَحولون بينى و بين السَّلام ... فلست أسلِّم إلّا اُختلاسا
وأَنفذتُ أَمرك فى نافذٍ ... فما زاده ذاك إلّا شِماسا

فلما وقف عليها جعفر بعث فأَحضرنى . فلما دخلتُ إليه ، أَحضر نافذاً وقرأ الأبيات عليه وقال لى : فَعلتها يا عدوّ الله ! فغضب نافذ حتى كاد يَبكى ، وجَعفر يُصفِّق ويَضحك . ثم لم يعد نافذ إلى التعرُّض لى .

شعره فى غلام قبيح للمصعبى أبى القدح منه

وذُكر إن إسحاق الموصلى كان عند إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب ، فلما جَلس للشراب جعل الغِلمان يَسْقُون مَن حَضر . فجاء غلام قَبيح الوجه إلى إسحاق بقَدح فيه نَبيذ ، فلم يأخذه منه ، ورآه إسحاق المُصعبى فقال له : لم لا تَشرب ؟ فكتب إليه إسحاق الموصلى :

(١) فى الأغانى : « الكأس » .
(٢) مكان هذه الكلمة فى الأصول أخرى صريحة .

اِصبحْ نَديمك أَقداحاً مُسلسلةً ... من الشَّمول[1] وأَتبعها بأَقْداحِ
مِن كفِّ رِيمٍ مَليح الدَّلِّ رِيقتُه ... بعد الهُجوع كمِسْك أو كتُفّاح
لاأَشربُ الرَّاح إلا مِن يدَى رَشَأٍ ... تَقْبيلُ راحتــه أشهى من الرَّاح

فضحك ثم قال : صدقتَ والله ! ثم دعا بوَصيفةٍ كأنها صُورة ، تامةُ الحُسن ، لطيفة الخَصر ، فى زِى غُلام ، عليها أَقبيةٌ[2] ومِنطقة ، فقال لها : تَوَلَّى سَقْى أبى محمد . فما زالت تَسقيه حتى سكر ، ثم أَمر بتوجيهها إليه وجميع مالها . فحُملت معه .

هو وطلحة بعد وقعة الشراة وجوائزه إليه

وحَكى إسحاق الموصلى قال :

بعث إلىّ طلحةُ بن طاهر بن الحُسين ، وقد أُنصرف من وقعة الشُّراة[3] ، وقد أصابتْه ضَربة فى وجهه ، فقالى لى الخادم : أَجب الأَمير . فقلتُ : وما يعمل ؟ قال : يشرب . فمضيتُ إليه ، فإذا هو جالسٌ قد عَصب ضربته وتقلنس بقَلنسوة . فقلت له : سبحان الله ! ما حَملك على لُبس هذا أيها الأمير ! قال : التبرُّم بغيره . ثم قال : غَنِّنى :

إنى لأَكنى بأَجبالٍ عن اُجْبُلها ... وبأسم أوديةٍ عن اُسم واديهـا
عَمــداً ليحسبها الواشُون غانيــةً ... أُخرى وتَحسب أنِّى لا أُباليهــا
ولا يُغيِّر وُدِّى أنْ أُهاجرَها ... ولا فِراقُ نوًى فى الدار أَنْويها
وللقَلُوص ولى منهـا إذا بَعُـدت ... بوارحُ الشَّوق تُنْضينى وأُنْضيها

قال : فغنّيتُه إياه . فقال : أحسنتَ والله ! أَعد . فأعدتُ عليه وهو يشرب ، حتى صلَّى العَتَمة ، وأنا أُغنيه إياه . فأقبل على خادمٍ له بالحضرة وقال له : كم عندك ؟ قال : مقدار سَبعين ألف درهم . قال : تُحمل معه . فلما خرجتُ من عنـده تَبعني

(١) الشمول : الخمر . والرواية فى بعض الأصول : « يسلسلها » مكان « مسلسلة » .
(٢) الأقبية : ثياب تلبس فوق الثياب . الواحد : قباء .
(٣) الشراة : الخوارج .

جماعةٌ من الغلمان يسألوننى ، فوزّعت المـال بينهم . فرُفع الخبر إليه فأغضبه ، ولم يُوجِّه إلىّ ثلاثاً . فجلستُ وتناولت الدواة والقرطاس فقلت :

علَّمنى جُـــودُك السماحَ فما ... أبقيتُ شيئاً لدىّ من صِلَتكْ
لم أُبق شيئاً إلا سمحتُ به ... كأنّ لى قُدرةً كمَقـــدرتك
تُتلف فى اليوم بالهِبات وفى السّـ ... ـاعة ما تَجتنيـــه فى سَنتك
فلستُ أدرى من أين تُنفق لو ... لا أنّ ربى يَجزى على هِبتك

فلما كان فى اليوم الرابع بعث إلىّ ، فصرتُ إليه فدخلتُ عليه وسلّمت . فرَفع بصره إلىّ وقال : اُسقُوه رِطْلاً . فسُقيته . فأمر لى بآخر . فشربت ثلاثةً . ثم قال : غننى :

* إنى لأَكنى بأَجبال عن اُجبُلها *

فغنيتُه إياه ، ثم أتبعتُه الأبيات التى قُلتها . وقد كنتُ غنيتُ فيها لحناً فى طريقة الصَّوت . فقال لى : اُدْن . فدنوتُ . فقال : اجلس . فجلستُ . فاُستعاد الصوتَ الذى صنعتُه . فأعدتُه . فلما فهمه وعَرف المَعنى فى الشعر قال لخادم له : أَحضر لى فلاناً . فأَحضره . فقال : كم قِبلك من مال الضِّياع ؟ قال : ثمانمائة ألف درهم . قال : أَحْضرنيها الساعةَ . فجىء بثمانين بَدْرة . فقال للخادم : جِئنى بثمانين غلاماً مملوكاً . فأُحضروا . فقال : اُحملوا المالَ . ثم قال لى : يا أبا محمد ، خُذ المال والمَماليك حتى لا تَحتاج إلى أحد تُعطيه شيئاً[1] .

شكا إليه المأمون أصحابه ، ثم غناه فأجازه

وحكى إسحاق قال :

اســتدنانى المأمونُ يوماً وهو مُستلقٍ على فراشٍ حتى صارت رُكبتى على الفراش ، ثم قال : يا أبا إسحاق ، أشكو إليك أَصحـابى : فعلتُ بفلان كذا ففَعل كذا ، حتى عدَّد جماعةً من خواصّه . فقلت له : أنت يا سـيدى بتفضُّلك علىَّ وحُسن رأيك فىّ ظننتَ أنِّى ممن يُشاور فى مثل هذا ، فجاوزتَ بى حدِّى ، وهذا

(١) الرواية فى الأغانى : « حتى لا تحتاج أن تعطى لأحد منهم شيئا » .

رأىٌ يَجلّ عنِّى ولا يبلغه قَدرى . فقال : و لِمَ وأنت عالم عاقل ناصح ؟ فقلت : هذه المنزلةُ عند سيدى علَّمتْنى ألا أقول إلّا ما أعرف ولا أَطلبَ إلّا ما أنال . فضحك وقال : قد بلغنى أنك صنعتَ فى هذه الأيام لحناً فى شعر الرَّاعى ولم أَسمعه منك . فقلت : يا سيدى ، ما سمعه أحدٌ إلا جوارىّ ، ولا حضرتُ عندك منذ صنعتُه . فقال : غنِّه . فقلت : الهَيْبة والصَّحو يمنعانى أن أُؤديه كما أُريد ، فلو آنس أَميرُ المؤمنين عَبدَه بشىء يُطر به و يقوِّى طبيعته كان أجود . فأَمر لى بالغَداء ، فتغدّينا. ومُدّت الستارة وتَغنى مَن وراءها ، وشَربنا أَقداحاً . فقال : ياإسحاق ، أَمَا جاء أوان الصوت ؟ فقلت : بلى يا سيدى . وغنيتُه لحنى هذا فى شعر الراعى :

ألم تسأَل بعـارِمة[1] الدِّيارا ... عن الحىّ المُفارق أين سـارَا
بلى سـاءلتُها فأَبتْ جواباً ... وكيف تُسـائِل الدِّمنَ القِفارا

فاُستحسنه ،وما زال يشرب عليه سائر يومه ، وقال لى : ياإسحاق ، لا طلبَ بعد وجود البُغية ! ما أَشرب بقية يومى إلا على هـذا الصوت . ثم وَصلني وخَلع علىَّ خلعةً من ثيابه .

صلة الواثق له وقد خرج معه إلى النجف

وحكى إسحاق قال :

ما وصلني أحدٌ من الخلفاء قطُّ بمثل ما وصلنى الواثق ، وقد اُنحدرتُ معه إلى النَّجف ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، قد قلتُ فى النَّجف قصيدة . فقال : هاتها . فأَنشدتُه :

لم يَـنزل الناسُ فى سَهلٍ ولا جَبـلِ ... أَصفى هواءً ولا أَعْذَى[2] من النَّجفِ
حُفَّت ببَرٍّ وبَحر من جوانبهـا ... فالبَرُّ فى طَرَفٍ والبحر فى طَرَف
وما يَزال نسيمٌ من يَمانيـةٍ ... يأتيك منهـا بريَّا رَوضـةٍ أُنُف

(١) عارمة : موضع فى ديار بنى عامر بنجد .
(٢) أعذى : أطيب هواء .

فقال : صدقت يا إسحاق ، هى كذلك . ثم أنشدتُه حتى انتهيتُ إلى قولى فى مَدحه :

لا يَحسب الجودَ يُفنى ماله أبداً ولا يَرى بَذل ما يَحْوِى من السَّرف

ومضيتُ فيها حتى أتممتُها . فَطرب وقال : أحسنتَ والله يا أبا محمد ! وكنَّانى يومئذ ، وأمر لى بمائة ألف دِرهم . فانحدرنا إلى الصالحيَّة ، فذكرت الصِّبيان و بغداد فقلت :

أَتبكى على بَغـــدادَ وهى قريبةٌ فكيف إذا ما ٱزددتَ عنها غداً بُعْدَا
لَعَمْرُك ما فارقتُ بغداد عن قِلًى لو أنّا وَجدنا عن فِراق لهـــا بُدَّا
إذا ذَكرتْ بغـــدادَ نَفسى تَقطعتْ من الشَّوق أو كادتْ تَهيم بها وَجـدا
كفى حَزناً أن رُحْتُ لم أستطع لها وَدَاعاً ولم أُحدِث لساكنها عَهـــدا

قال : فقال لى : يا موصلى ، أُشتقت إلى بغداد ؟ فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولـكن من أجل الصِّبيان قد حَضرنى بيتان . فقال : هاتهما . فأَنشدتُه :

حَنَنتَ إلى أُصيبةٍ صِـغار فشـاقك منهمُ قُربُ المَزارِ
وأَبرحُ ما يكون الشوقُ يوماً إذا دَنتِ الدِّيار من الدِّيار

فقال لى : يا إسحاق ، صِرْ إلى بغدادَ فأَقم مع عيالك شهراً ثم سِر إلينا ، وقد أمرتُ لك بمائة ألف درهم .

صنع الواثق لحناً وصنع هو خيراً منه

قيل :

وكان الواثق عالماً بصناعة الغِناء ، فعمل لحناً فى قول بعض الأعراب :

فيا مُحْيِىَ الموتى أَعِنِّى على[1] التى بها نَهِلت نفسى سَـقاماً وعَلَّتِ

(١) الرواية فى الأغانى : « أيا منشر الموتى أقدنى من التى » .

وهذا البيت من أبيات غَزِلة رَقيقة ، وهى :

ألَا قاتل اللهُ الحمـــامةَ غُـــدوةً ... على الأَيْك ماذا هَيَّجتْ حين غَنَّتِ
تَغَنَّتْ بصـــوت أَعجميٍّ فَهَيَّجَتْ ... من الوَجـد ما كانت ضُلوعى أَجنَّت
فلو قَطَرَتْ عينُ امرىءٍ من صَبابةٍ ... دَماً قطـرتْ عَيْنى دَماً أو أَلَمَّت
فما سكتت حتى أَوَيْتُ لصَوْتهـا ... وقلتُ أَرى[1] هـذى الحمامةَ جُنَّت
ولى زَفـراتٌ لو يَدُمْن قَتَلْننى ... بشَوقٍ إلى نأيِ التى قـــد تَولَّت
إذا قلتُ هذى زَفرةُ اليوم قد مضتْ ... فَمَن لى بأُخرى فى غـدٍ قد أَظلَّت
فيـا مُحْيِى المَـوتى أَعِنِّى على[2] التى ... بهـا نَهِلت نفسى سَـقاماً وعَلَّت
فقـــد بَخلت حتى لو انِّى سألتُهـا ... قَـذَى العين من سافِى التُّراب لضَنَّت
فقلتُ أَرحـلَا يا صـاحبىّ فلَيْتنى ... أَرى كُلَّ نَفْسٍ أُعطيت ما تَمنَّت
حلفتُ لهـا بالله ما أُمُّ واحـــدٍ ... إذا ذكرتْه آخرَ اللَّيـــل[3] أَنَّت
وما وَجْـدُ أَعرابيّـة قذفتْ بهـا ... صُروفُ النَّوى من حيث لم تَكُ ظنَّت
تَمنَّتْ[4] أَحاليبَ الرِّعاء وخَيمـــةً ... بنَجْد فلم يُقْـــدَر لهـا ما تمنّتِ
إذا ذكرتْ ماءَ العِضـــاه وطِيبَـــه ... و بَرْدَ الحِمى من بَطن خَبْت[5] أَرنَّت
بأكثر منِّى لوعـــةً غـــير أنَّنى ... أُجَمْجِم أَحشـــائى على ما أَجَنَّت

وكان الواثِق إذا صَنع فى شعر غناءً قال لإسحاق المَوْصلى : هـذا وَقع البارحةَ فاسمعه . فـكان ربما أَصلح فيه الشىء بعد الشىء .

---

(١) فى أصول الأغانى : « ترى » .

(٢) فى أصول الأغانى : « أقدنى من » .

(٣) فى أصول الأغانى : « حنت » مكان « أنت » .

(٤) هذا البيت ساقط من أصول الأغانى . والأحاليب : جمع إحلاب ، وهو اللبن المحلوب .

(٥) العضاه : ضرب من الشجر له شوك . والخبت : ما اطمأن من الأرض .

فكاده مُخارق عند إسحاق وقال : إنما يَستجيد صنعتَك إذا حضر ليُقار بك ويَستخرجَ ما عندك ، فإذا فارق حضرتَك قال فى صنعتَك غير ما تَسمع : فقال الواثق : فأنا أُحب أن أقف على ذلك . قال مخارق : فأنا أُغنّيـــه : « أيا مُحيى الموتى » فإنه لم يعلم أنه لك ولا سَمعـه من أحد . فلما دَخل إسحاق غنّاه مُخارق وتعمّد لأن يُفسده بَجهده ، وفَعل ذلك فى مواضع خفيّـة لا يَعرفها الواثق من قِسْمته . فلما غنّـاه ، قال الواثق لإسحاق : كيف تَرى هذا الصوت ؟ قال : فاسدٌ غير مَرضىّ . فأَمر به فسُحب من المجلس حتى أُخرج عنـه ، وأَمر بنَفْيه إلى بغداد . ثم جَرى ذكرُه يوماً ، فقـالت له فَريدة : يا أمير المُؤمنين ، إنمـا كاده مُخارق فأفسد الصوتَ من حيث أَوهمك أنّه زاد فيه بحِذْقه نَغَماً وجَوّده ، وإسحاق يأخذ نفسَه بقول الحق فى كُل شىء ساءه أو سرّه . ويَفهم من غامض عِلل الصِّناعة مالا يَفهمه غيرُه ، فَلْيُحْضره أمير المُؤمنين ولْيحلِّفه بغَليظ الأَيمان أن يَصْدُقَه عمّا يَسمع ، وأُغنّيه إياه حتى يقف على حقيقة الصَّوت ، فإن كان فاسداً فصدَق عنه لم يكن عليه عَتْب ، ووافقناه عليه حتى يستوى ، فليس يجوز أن نتركه إن كان فيه فَساد . وإن كان صحيحاً قال فيه ما عنده . فأمر بالـكتاب بحَمله ، فحُمل وأُحضر ، وأَظهر له الرِّضى عنه ، ولَزمه أيّاماً ، ثم أحلفه أن يَصْدُقه عمّا يمُر فى مجلسه . فحلف له . ثم غَنّى الواثق أصواتاً يسأله عنها أجمع ، فيُخبره فيها بما عنده . ثم غنّته فريدةُ هذا الصوتَ ، وسأله الواثقُ عنه ، فرَضيه واستجاده وقال : ليس على هذا سمعتُه المرةَ الأُولى ، وأَبان عن المواضع الفاسـدة ، وأخبر بإفساد مُخارق إياها. فسكن غَضبُه الذى كان ، ووصل إسحاقَ وتنكّر لمُخارق مُدة.

غنى الأمين بشعر مدحه به فأجازه

وقيل :

إن إسحاق غَنّى محمداً الأَمين بن الرَّشيد لحناً صَنَعه فى شعر له يَمدحه به :

يأيّها القائم الأمينُ فدتْ نفسَك نَفْسى بالمال والوَلَدِ
بَسطتَ للناس إذ وَليتَهمُ يداً من الجود فوق كُل يد

فأمر له بألفِ درهم . فأُدخلت إلى منزله يحملها مائة فرّاش .

أنشد مروان بن أبى حفصة فشغله عن حديث أبيه

وذُكر أنه دخل مروان بنُ أبى حَفصة على إبراهيم المَوصلى ، فجعلا يتحدّثان، إلى أن أنشد إسحاق بن إبراهيم مروانَ لنفسه :

(١) إذا مُضَر الحمراء كانت أُرْومتى وقام بنَصرى خازمٌ وابن خازِمِ
عطستُ بأنفٍ شامخٍ وتناولتْ يداى الثُّريّا قاعداً غيرَ قائم

وجعل إبراهيم يُحدِّث مَروان ، وهو عنه مَشغول ساهٍ لا يفهم عنه شيئاً . فقال له : مالك لا تُجيبنى ؟ فقال : لأنك والله لا تَدرى ما أفرغ أُبنُك فى أُذنى .

طرب لشعر أعرابى وسكر عليه

وحكى يَعقوب بن بَشير قال :

كنتُ مع إسحاق المَوصلىّ فى نُزهة ، فمرّ بنا أَعرابىٌّ ، فوجّه إسحاقُ خَلْفه بغُلام ، فوافاه الأعرابىّ . فلمّا شَرب وسَمع حَنين الدَّواليب قال :

بَكرتْ تَحِنُّ وما بها وَجْدِى وأَحِنُّ منْ وَجْدٍ إلى نَجْدِ
فدمُوعُها تَحيا الرِّياضُ بها ودُموعُ عينى أقرحت خَدِّى
و بساكِنى نَجدٍ كَلِفْتُ وما يُغْنِى لهم كَلَفى ولا وَجْدِى
لَوْ قِيس وَجْدُ العاشقين إلى وَجْدى لزاد عليه ما عِنْدى

فما انصرف إلى بيته إلّا محمولاً سُكْراً ، وما شَرب إلّا على هذه الأبيات .

من شعره فى الواثق

وحكى إسحاق قال :

قدمتُ على الواثق فى بعض قَدَماتى ، فقال لى : أَمَا اشتقتَ إلىّ ؟ فقلتُ : بلى والله يا أمير المؤمنين ، وأَنشدتُه فى ذلك :

---

(١) فى رواية :

إذا كانت الأحرار أصلى ومنصبى ودافع ضيمى خازم وابن خازم

أشكو إلى الله بُعدى عن خَليفته ... وما أُعالج من سُقْمٍ ومِن كِبَرِ
لاأستطيع رَحِيلاً إنْ هَممتُ به ... يوماً إليه ولا أَقوى على السَّفر
أَنْوِى الرَّحيل إليــه ثم يَمْنعنى ... ماأَحْدث الدهْرُ والأيامُ فى بَصرى

وقال ، وقد أشخصه إليه ، قصيدتَه الدالية التى أولها :

ضَنَّت سُعاد غداةَ البَيْن بالزَّادِ ... وأَخلفتْك فمــا تُوفِى بِميعــادِ
ما أَنس لا أَنْسَ فيها إذ[1] تُودِّعنى ... والحزن منها و إن لم تُبْدِه بادِى
لمّا أَمرتَ بإشخاصى إليك هَفَا ... قَلبى حَنيناً إلى أَهــلى وأَولادى

يقول فيها :

ثم اُعتزمتُ ولم أَحْفــل ببَينهمُ ... وطابتِ النَّفسُ عن فَضْل وحَمّاد
كم نِعمةٍ لأَبيك الخيرِ أَفردنى ... بها وعَمّ بأُخْرى بعــد إفراد
فلو شــكرتُ أياديكم وأَنْعُمَكم ... لمــا أحاط بها وَصْفى وتَعْدادى
لأشكرنّك ما ناح الحَمــامُ وما ... حَدَا على الصُّبح فى إثْر الدُّجى حادِى

قصة خروجه إلى تل عزاز

وحكى إسحاق المَوصلىّ قال :

كنتُ مع الرَّشــيد حين خَرج منها إلى الرَّقة ، فدخل يوماً إلى النِّساء ، وخرجتُ فمضيتُ إلى تل عَزَاز ، فنزلتُ عند خَمَّارة هناك ، فسقتْنى شراباً لم أرَ مثله حُسناً وطيباً ورائحة ، فى بيت مَرْشوش ورَيْحان غَضّ ، و برزتْ بنتٌ لها كأنها خُوط بانٍ[2] أو جَدْل[3] عِنان ، لم أَر أحسنَ منها قدًّا ، ولا أَميَل منها خَدّا ، ولا أعتق وجهاً ، ولا أبرع ظَرفاً ، ولا أفتن طَرفاً ، ولا أحسن كلاماً ، ولا أتمَّ تَماماً . فأقمتُ عندها ثلاثاً والرَّشيدُ يَطْلُبنى ولا يقدر علىّ . ثم اُنصرفتُ فذهبتْ

(١) فى أصول الأغانى : « تودعنا » مكان « تودعنى » .
(٢) الخوط : الغصن الناعم .
(٣) الجدل : الحبل المفتول .

بى رسلُه ، فدخلتُ عليه وهو غَضبان ، فلما رأيتُه خطرتُ فى مِشْيتى ورقصتُ ، وكانت فىّ فَضْلةٌ من السُّكر ، وغنَّيتُ :

إنّ قَلبى بالتَّل تَلِّ عَـــزَاز ... عِند ظَبْى من الظّباء[1] الجَوازِى
يا لَقَوْمى لبنت قَسٍّ أصــابتْ ... منك صَفْو الهوى وليست تُجازى
حلفتْ بالمَسيح أنْ تُنْجز الوَعْـــد وليست تهمّ[2] بالإنجــاز

فسكن غضبُه ، ثم قال : فأين كُنت ؟ فأخبرتُه . فضحك ثم قال : إن مثل هذا إذا أُنفق لطَيِّبٌ . أَعد غناءك ، فأعدتُه . فأُعجب به وأَمرنى أن أُعيده ليلةً من أولها إلى آخرها . فأخذه المُغنّون منِّى جميعاً ، وشربنا إلى طُلوع الفجر . ثم أُنصرفنا . فصلّيتُ الصُّبح ثم نِمْت . فما أُستقررنا حتى أتانى رسولُ الرَّشيد يأمرنى بالحُضور . فركبتُ ومضيتُ ، فلما دخلتُ وجدتُ ابن جامع قد طَرح نَفسه يتمرّغ على دُكّان[3] فى الدار لغَلبة السُّكر عليه ، فقال : أتدرى لِمَ دُعينا ؟ قلتُ : لا والله . قال : لكنى أَدرى ، بسبب نَصرانيّتك ، عليك وعليها لعنةُ الله ! فضحكتُ . فلما دخلتُ على الرَّشيد أخبرتُه بالقصة . فضحك وقال : صَدَق ، عُودوا فيه ، فإنى أُشتقتُ إلى ما كُنا فيه لمّا فارقتُمونى . فعُدْنا فيه يومَنا كُلَّهُ حتى أُنصرفنا .

جفاه المأمون فدس عليه علوية ففتاه فرضى عنه

وحكى إسحاق الموصلى قال :

لما قدم المأمونُ ، يعنى العراقَ ، من خُراسان . أقام بعد قُدومه عشرين شهراً لم يَسمع حرفاً من الأغانى . ثم كان أَول من تغنَّى بحَضرته أبوعيسى بن الرَّشيد . ثم واظَب على السَّماع مُستتراً ، متشبِّهاً فى أول أمره بالرَّشيد . وأقام على ذلك أربع حِجَجٍ . ثم ظَهر للنُّدماء والمُغنِّين ، وكان حين أَحبّ السَّماع سأل عنِّى . فحُرِحتُ بحضرته ، وقال الطاعن علىّ : ما يقول أميرُ المُؤمنين فى رجل يَتيه على الخلافة !

(١) الجوازى ، بالهمز وسهل : الظباء استغنت بالرطب عن الماء ؛ الواحدة جازئة .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « تجود » .
(٣) الدكان : المصطبة .

فقال : ما أبقَى هذا شيئاً من التّيه إلا استعمله . فأمسك عن ذِكرى وجَفانى من كان يقرِّبنى . حتى جاءنى عَلّويه فقال : أتأذن لى فى ذكرك ، فإنا قد دُعينا اليوم؟ فقلت : لا ، ولكن غنِّه بهذا الشعر :

يا سَرْحةَ الماء [1] قد سُدَّت مواردُه ... أمَا إليكِ طريقٌ غيرُ مسدودِ
لحائمٍ حامَ حتَّى [2] لا حِيَامَ له ... مُحلَّأٍ [3] عن طريق الماء مَطْرود

قال : فمضى عَلّويه . فلما اُستقرّ به المجلسُ غنّاه الشِّعر الذى أمره به . فما عدا المأمونُ أن سمع الغِناء حتى قال: ويلك يا عَلّويه ! لمن هذا الشِّعر؟ فقال: ياسيدى، لعبدك وابن عَبدك الذى جفوته واطَّرحته لغير جُرم . فقال : إسحاق تَعنى ؟ فقال : نعم . فقال :يحضُر الساعةَ . فجاءنى رسولُه، فصِرتُ إليه . فلما دخلتُ عليه ، قال : اُدْنُ . فدَنوتُ منه ، فرفع يديه مادًّا لهما إلىّ ، فأكببتُ عليه ، فاُحتضنى بيديه ، وأظهر من برِّى وإكرامى ما لو أظهره صديقٌ مُؤانس لصديقه لسَرَّه .

فساد ما بينه وبين الأصمعى وحديث ذلك

وقيل :

كان إسحاق الموصلىّ يأخذ الرِّواية عن الأصمعىّ ويذكر عنه [4] ، ثم فسد ما بينهما ، فهجاه إسحاق وثلبه وكَشف للرّشيد معايبَه ، وأخبره بقلّة شُكره وبُخله وضَعة نفسه ، وأنّ الصَّنيعة لا تزْكو عنده ، ووصف له أبا عُبيدة مَعمر بن المُثنَّى بالثِّقة والصِّدق والسَّماحة والعلم ، واُستعان بالفضل بن الرَّبيع فى ذلك . ولم يزل حتى وَضَع مَرْتبة الأصمعىّ وأسقطه عندهم . وأنفذوا إلى أبى عُبيدة مَن أقْدمه . فقال الأصمعىُّ فى إسحاق :

(١) سرحة الماء ، يكنى بها عن المرأة .
(٢) الرواية فى اللسان : « لا حراك به » مكان « لا حيام له ».
(٣) المحلأ : المطرود .
(٤) فى أصول الأغانى : « يأخذ عن الأصمعى ويكثر الرواية عنه » .

إئن تغنَّيتَ للشَّرب الكرامَ[1] « ألا ردّا خليطُ الجمالَ اليـوم فانطلقُوا »
وقيل أنت حُسَـانُ النَّاس كُلِّهم وابنُ الحسان فقد قالوا وقد صَدقوا
فما بهـــذا تقوم النّادباتُ ولا يُثْنَى عليك إذا ما ضَمَّك الخِرق

ومما قاله إسحاق فى الأصمعىّ :

أليس من العجائب أن قِرْداً أُصَيْمِـــعَ باهليًّا يَسْتطيلُ
ويزعُم أنه قد كان يُفْتى أبا عمرو ويسأله[2] الخليل
إذا ما قال قال أبى عجبْنا لِمـــا يأتى به ولِما يَقُول
وما إن كان يَدْرى ما دَبِيرُ أبوه إن سألتَ[3] وما قَبِيل

بينه وبين غلامه فتح

وذُكر أنه كان لإسحاق غلام يقال له : فَتْح ، يَستقى الماء [لأهل داره] على بَغلين من بغاله . فقال إسحاق : فقلتُ له يوما : أىّ شىء خبرُك يا فتح ؟ قال : خَبرى أنه ليس فى هذه الدار أشقى منّى ومنك ، أنت تُطعم أهل الدار الخُبز وأنا أسقيهم المـاء . فاستظْرفتُ قولَه وضحكتُ منـه ، فقلت له : فأىَّ شىء تُحب ؟ قال : تُعْتقنى وتَهب لى البَغْلين أَستقى عليهما . فقلت له : قد فعلتُ .

سأله الفضل أن يغنيه وكان الرشيد نهاه وقصة ذلك

وحُـكى أن إسحاق قال :

نهانى الرشيدُ أن أُغني أحداً غيرَه . ثم استوهبنى جعفرُ بن يحيى وسأله أن يأذن لى أن أُغنيه ، ففعل . واتفقنا يوماً عند جعفر ، وعنده أخـــوه الفضل ، والرشيدُ يومئذ بَعقب علَّة قد عُوفى منها وليس يَشرب . فقال لى الفضـلُ : انصرف الليلةَ إلىّ حتى أهب لك مائة ألف درهم . فقلتُ له : إن الرشـيد قد

(١) فى الأغانى : « ألا ارد الخليط جمال الحى فانفرقوا » .
(٢) أبو عمرو ، هو ابن العلاء ، أعلم الناس بالقراءات العربية . مات سنة ١٥٩ هـ . والخليل ، هو ابن أحمد اللغوى النحوى العروضى . مات سنة ١٧٥ هـ .
(٣) يقال : فلان لا يعرف ما قبيله وما دبيره ، أى لا يعرف ما قدامه وما خلفه .

نَهانى أن أُغنى إلّا له أو لأَخيك، وليس يَخفى عنه خَبرى، وأنا مُتَّهم بالميل إليكم، ولستُ أتعرّض له ولا أُعرّضك . فلما نَكب الرشيدُ البرامكة قال : إيه يا إسحاق ! تركتَنى بالرقّة وجلستَ ببغداد تُغنّى الفضلَ بن يحيى ! فحلفتُ بحياته أنى ماجالستُه قَطُّ إلا على الحديث والمُذاكرة ، وأنه ما سمعنى قطُّ إلا عند أخيه . وحلّفته بتُربة المهدىّ أن يسأل عن هذا مَن فى داره من نسائهم. فسأل عنه ، فحدّثت بما ذكرتُه ، وعرف خَبر المائة الألف التى بذلها فرددتُها . فلما دخلتُ عليه ضَحك إلىّ ثم قال: قد سألتُ عن أمرك فعرفتُ منه مثلَ مَا عرّفتنى ، وقد أمرتُ لك بمائة ألف درهم عِوضاً عمّا بذله لك الفَضل .

بينه و بين أعرابى أنشده شعره

وحَكى إسحاق قال :

أنشدت بعض الأعراب شعراً لى أقول فيه :

أَجَرتْ سوابقُ دَمْعكَ الْمُهْراقِ ... لمّا جرى لك سانحٌ بفِرَاقِ

إنّ الظَّعائن يومَ[1] صائغة اللِّوى ... هاجتْ عليك صبابةَ المُشتاق

لم أَنْس إذ أَلْمَحْنَنا فى رِقْبةٍ ... منهنّ بيضَ تَرائب وتَرَاق

وأَشَرْنَ إذ ودَّعْننا بأَنامل ... حُمْرٍ كهُدَّاب الدِّمقْس[2] دِقاق

ورمتْك هِنْدٌ يوم ذاك فأَقْصَدتْ ... بأَغرَّ عَذْبٍ باردٍ بَرّاق

وتَنفَّست لمّا رأتْك صَبابةً ... نَفَساً تَصعَّد فى حَشًى خَفَّاق

ولقد حَذِرتُ فما نجوتُ مسلّما ... حتى صُرِعْتُ مَصارِع العُشَّاق

إنّ الخلافة أُثبتتْ أوتادُها ... لمّا تَحمَّلها أبو إسحاق

مَلِكٌ أغرُّ يَلوح فوق جَبينه ... نورُ الخلافة ساطعَ الإشْراق

كُسِى الجَلالَ مع الجمال وزَانَه ... هَدْىُ التُّقَى ومكارِمُ الأَخلاق

(١) صائغة : من نواحى المدينة . وقيل : موضع حجازى قريب من ذى طوى . وفى الأغانى : « ناصفة اللوى » .

(٢) فى الأغانى : « رقاق » .

صَحَّت عُروقُك فى الجِياد وإنما ... يَجرى الجوادُ بصحّة الأَعراق
ذَخَرَ الملوكُ فكان أفضلُ ذُخرهم ... للمُلك ما جَمعوا[1] من الأَوْراق
وذَخرتَ أبناءَ الحُروب كأَنهم ... أُسْدُ العَرين على متُون عِتاق
كم من كريمةِ مَعشرٍ قد أُنكحتْ ... بسيُوفهم قَسْرًا بغير صَداق
وعزيزةٍ فى أهلها[2] وقَطِينها ... قد فارقتْ بَعْلاً بغير طَلاق

قال : فقال لى : أَفْلَيت والله يا أَبا محمد ! فقلت : وما أفليت ! قال : رَعيت فلاةً لم يَرْعها غَيرُك .

ذكره الفضل ابن الربيع بالشيب فقال شعرا

وحكى إسحاق قال :

دخلتُ على الفَضل بن الرَّبيع فقال لى : ياإسحاق ، كَثُر والله شَيْبك! فقلت: أنا وذاك — أصلحك الله — كما قال أخو ثَقيف :

الشيبُ إن يَظْهَر فإنّ وراءه ... عُمراً يكون خِلالَه مُتَنفَّسُ
لم يَنْتقِصْ منِّى المَشيبُ قُلامةً ... ولَنَحنُ حين بدا أَلَبُّ وأَكْيس

فقال : هات يا غلام دواةً وقرطاساً ، أكتُبهما لى لأتسلَّى بهما .

حدث عن غائب فى مجلس المعتصم فأجازه

وحكى إسحاق قال :

ذكر المُعتصم يوماً بعضَ أصحابه وقد غاب عنه ، فقال : تعالوا حتى نقولَ ما يَصنع فى هذا الوقت . فقال قوم : يلعب بالنَّرد . وقال قوم : يغنِّى . و بلغتْنى النَّوبةُ . فقال : قل ياإسحاق . قلت : إذن أقول فأُصيب . فقال : أتعلم الغَيْب ؟ فقلت : لا ، ولكنى أَفهم ما يَصنع وأَقدر على مَعرفته . قال : فإذا لم تُصب : قلت : فإن أصبتُ؟ قال: لك حُكمك. قال: و إن لم تُصب ؟ قلتُ : لك دمَى . قال: وَجب.

(١) الأوراق : الدراهم .
(٢) قطينها : إماؤها وحشمها .

قلت : وَجب . قال : فقُل . قلت : يتنفَّس . قال :فإن كان ميتاً ؟ قلت : تُحفظ الساعة التى تكلمتُ فيها ، فإن كان مات فيها أو قَبلها فقد قَمرتنى . قال : قد أنصفتَ . قلت : فالحكم . قال : أحتكم ما شئتَ . قلت : ما حُكمى إلاّ رِضاك يا أمير المؤمنين . قال : فإنّ رضاى لك ، وقد أمرتُ لك بمائة ألف درهم ، أترى مَزيدا ؟ قلت : ما أولاك بذلك يا أمير المؤمنين . قال :فإنها مائتا ألف درهم . أترى مَزيدا ؟ قلت : ما أحوجنى يا أمير المؤمنين إلى ذلك . قال : فإنها ثلثمائة ألف درهم ، أترى مزيدا ؟ قلت: ما أولاك يا أمير المؤمنين بذلك . فقال : ياصَفيق الوجه ، من يزيد على هذا ؟

أجازه المخلوع على أبيات فى سفينة له

وحكى إسحاق قال :

عمل محمد المَخلوع ـ يعنى الأمين بن الرشيد ـ سفينة ، فأُعجب بها وركب فيها يُريد الأنبار ، فلما أمعن وأنا مُقبل على بعض أبواب السَّفينة صاحوا : إسحاق! إسحاق! فوثبتُ فدنوتُ منه . فقال لى : كيف ترى سفينتى؟ فقلت . حَسنة يا أمير المؤمنين ، عمّرها الله ببقائك . فقام يُريد الخَلاء وقال لى : قُل فيها أبياتاً . فقلت . وخَرج ، وقمتُ بالأبيات إليه ، فاشتهاها جدا وقال : أحسنت ياإسحاق ! وحياتك لأهبنّ لك عشرة آلاف دينار . فقلت : متى يا أمير المؤمنين ؟ إذ وسع الله عليك ! فضحك ودعا بها على المكان .

حديث دخول عبدالملك بن صالح على جعفر بن يحيى وهو ينادمه

وحكى إسحاقُ قال :

لم أر قطُّ مثلَ جعفر بن يحيى ، كانت له فُتوّة وظَرف وأَدب وحُسن غناء وضَرب بالطبل ، وكان يأخذ بأجزل حظّ من كُل فنٍّ من الأدب والفُتوّة . فحضرتُ دار أمير المؤمنين ، فقيل لى : إنه نائم ، فانصرفتُ ، فلقينى جَعفر بن يحيى فقال لى : ما الخبر ؟ فقلت : أميرُ المؤمنين نائم . فقال لى : قِف مكانَك . ومضى إلى دار أمير المؤمنين . فخرج إليه الحاجب فأعلمه أنه نائم . فرجع وقال : قد نام

أمير المؤمنين فصِرْ بنا إلى المنزل حتى نخلو جميعاً بقِيّـة يومنا ، وأُغنيك وتُغنيني ونأخذ فى شأننا من وقتنا هذا . فقلت : نعم . فصِرْنا إلى مَنزله ، فطرحنا ثيابَنا ، ودعا بالطَّعام فطَعِمْنا ، وأمر بإخراج الجَوارى وقال : لِتَبْرُزْنَ ، فليس عندنا مَن نَحْتشمه. فلما وُضع الشَّراب دعا بقَميص فلبسه ، ودعا بخَلوق فتخلَّق به ، ودعا لى بمثل ذلك. وجعل يُغنّيني وأُغنّيه . ثم دعا بالحاجب ، فتقدَّم إليه ، وأمره ألاّ يأذن لأحد من الناس كُلهم ، وإن جاء رسولُ أمير المؤمنين أعلمه أنه مَشغول . واحتاط فى ذلك وتقدّم فيه إلى جَميع الحُجّاب والخَـدم ، ثم قال : إن جاء عبد الملك فأْذنوا له — يعنى رجلاً كان يأنس به ويُمازحه ويحضُر خلواته — ثم أخذْنا فى شأننا . فوالله إنّا لَعلى حالٍ سارّة عجيبة إذ رُفع السِّتر ، فإذا عبدُ الملك بن صالح الهاشمى قد أقبل . وغَلِط الحاجبُ فلم يُفرِّق بينـه وبين الذى يأنس به جَعفر بن يحيى . وكان عبدُ الملك بن صالح من جلالة القَدْر والتقشُّف والامتناع من منادمة الخُلفاء على أمر جليل ، وكان الرَّشيـد قد اجتهد به أن يَشرب معه أو عنده أقداحاً ، فلم يَفْعل رَفْعاً لنفسه . فلما رأيناه مُقبـلاً أقبل كُلُّ واحدٍ منا ينظُر إلى صـاحبه ، وكاد جَعفر أن يَنشقَّ غيظاً . وفَهم الرجلُ حالَنا ، فأقبل نحونا ، حتى إذا صـار إلى الرِّواق الذى نحن فيه نَزع قَلَنْسِيَته فرَمى بها مع طَيْلسانه جانباً ، ثم قال : أطعمونا شيئاً . فدعا له جَعْفر بالطَّعـام ، وهو منتفخٌ غَيْظاً وغَضباً ، فطَعم ، ثم دعا برِطل فشَربه ، ثم أقبل إلى المجلس الذى نحن فيه فأخـذ بعضَادَتَىْ الباب ، ثم قال : أشركونا فيما أنتم فيه . فقال جعفر : أُدخُل . ثم دعا بقَميص حرير وخَلوق ، فلَبِس وتخلَّق ، ثم دعا برِطْل ورِطل حتى شرب عِدة أرطال ، ثم اُندفع يُغَنّينا. فكان والله أحسنَنا جميعاً غِنـاء . فلما طابت نفسُ جَعفر وسُرِّى عنه ما كان به اُلتفت إليه وقال له : اُرفع حوائجك. قال : ليس هذا موضعُ حوائج . قال : لتفعلنّ ، ولم يَزل يلُح عليه حتى قال له : أميرُ المُؤمنين علىّ واجد وأُحبّ أن تترضّاه . قال :

فإنّ أمير المؤمنين قد رَضى عنك ، فهات حوائجك . قال : هذه كانت حاجتى . قال : ارفع حوائجك كما أقول لك . قال : فإن علىّ دَيناً فادحاً قدرُه أربعةُ آلاف درهم . قال : هذه أربعة آلاف ألف درهم ، فإن أحببتَ أن تقبضها فاقبضها من منزلى الساعة ، فإنه لم يَمنعنى من إعطائك إياها إلا أنّ قدرك يجلّ عن أن يصل مثلى مثلَك ، لكنّى ضامنٌ لها حتى تُحمل إليك من مال أمير المؤمنين غداً ، فسل أيضاً حوائجك . قال : أبنى ، تُكلِّم أمير المؤمنين حتى ينوِّه باسمه . قال : قد ولّاه أميرُ المؤمنين مصر وزوّجه ابنته العالية ومهرها ألفَىْ ألفِ درهم . قال إسحاق : فقلت فى نفسى : سَكر الرجل ـ يعنى جعفرا ـ فلما أصبحتُ لم تكن لى همّة إلا حُضورَ دار الرّشيد ، فإذا جعفر بن يحيى قد بكّر ، ووجدتُ فى الدار جَلَبَة ، فإذا أبو يوسف القاضى ونظراؤه قد دُعى بهم . ثم دُعى بعبد الملك بن صالح وابنه فأُدخلا على الرشيد . فقال الرشيد لعبد الملك : إن أمير المؤمنين كان واجدا عليك وقد رضى عنك ، وأمر لك بأربعة آلاف ألف درهم ، فاقبضها من جعفر بن يحيى الساعة . ثم دعا بابنه فقال : أشهدوا علىّ أنى قد زوّجتُه العالية بنت أمير المؤمنين وأمهرتُها عنه من مالى ألفى ألفِ درهم ، وولّيته مصر . فلما خَرج جعفر بن يحيى سألته عن الخبر ، فقال : بكرتُ إلى أمير المؤمنين فحكيتُ له جميع ما كان بيننا وما كُنا فيه حَرفاً حرفاً ، وحكيتُ له دُخول عبد الملك وما صنع . فعَجِب لذلك وسرّه . ثم قلت له : إنّى قد ضمنتُ له عنك يا أمير المؤمنين ضَمانا . قال : ماهو؟ فأعلمتُه . فقال : أوفِ بضمانك . وأمر باحضاره ، فكان ما رأيتَ .

شعر كتب به وهو معتل إلى ابن هشام

وحكى إسحاق قال :

كتبتُ إلى علىّ بن هشام ، وقد اعتللت أيّاماً ، فلم يأتنى رسولُه :

أنا عليلٌ منذ فارقتنى ... وأنت عمّن غاب لا تَسألُ

ما هكذا كنتَ ولا هكذا ... فيما مضى كنتَ بنا تفعل

فلما وصلْت رُقعتى إليه رَكب وجاءنى عائداً .

شعر له فى خرجته الأولى إلى البصرة

وحكى حمّاد بن إسحاق قال :

لمّا خرج أبى إلى البصرة خَرْجتــه الأُولى وعاد ، أَنشدنى لنفسه فى ذلك :

ما كنتُ أعرف ما فى البين من حَزَنِ ... حتى تنادَوْا بأن قد جِىء بالسُّفُنِ
قامتْ تُودِّعنى والعينُ تَغْلِبها ... فجمجمتْ[1] بعضَ ما قالت ولم تُبِن
مالت علىّ تُفدِّينى وَتَرْشُفنى ... كما يَميــل نَسيمُ الريح بالغُصُن
وأَعرضت ثم قالت وهى باكيــةٌ ... يا ليتَ معــرفتى إيّاك لم تَــكُن
لمّا أُفترقنــا على كُرْهٍ لفُرقتهــا ... أيقنْتُ أنى رَهينُ الهمِّ والحَزَن

هــو و جماعة من المغنين عند إسحاق المصعبى

وحكى إسحاق الموصلى قال :

دعانى إسحاق بن إبراهيم المُصعبىّ ، وكان عبــد الله بن طاهر عنــده يومئذ ، فوجّه إلىّ ، فحضرتُ وحَضر عَلّويه ومُخارق وغيرُهم من المُغنين ، فبينما هُم على شَرابهم وهم أسرُّ ما كانوا ، إذ وافى رسولُ المأمون فقال له : أجب أميرَ المُؤمنين . فقال : السَّمع والطاعة . ودعا بثيابه فلَبسها ، ثم أُلتفت إلى محمد بن راشد الخَنّاق فقال له : قد بلغنى أنك أحفظُ الناس لِمــا يدور فى المجالس ، فاحفظ كُلَّ صوت يَمُر ، وما يشربه كُل أحد ، حتى إذا عُدتُ أَعدنَ علىّ الأصــوات ، وشربتُ ما فاتنى . فقال : نعم . أَصلح الله الأمير . ومَضى إلى المأمون ، فأَمره بالشخوص إلى بابك[2] من غدٍ ، وتقدّم إليه بما يحتاج إليه ، ورجع من عنده . فلما دَخل ووضع ثيابه قال : يا محمد ، ما صنعتَ فيما تقدمتُ به إليك ؟ قال : قد أحكمتُه ، أصلح الله الأمير . ثم أخبره بما شربه القومُ وما استحسنوه من الغناء بعده . فأمر أن يُجمع له أكثر

(١) جمجمت : لم تفصح .

(٢) هو بابك الخرمى . وكان قد خرج على الدولة العباسية . وتبعه خلق كثير بأذربيجان . فلما كانت أيام المعتصم ، أخذ هو وأخوه إسحاق وصلبا .

ما شَرِبه واحد منهم فى قدح ، وأن يُعاد عليه كُل صوت مما حَفظ ، حتى أستوفى النبيذَ والأصوات . ثم قال لى : يا أبا محمد ، إنى قد عملتُ فى مُنصرفى من عند أمير المؤمنين أبياتاً ، فاسمعها . فقلت : هاتِها أعزَّك الله . فأنشدنى :

ألا مَن لقَلْبٍ مُسْلَمٍ للنَّوائبِ ... أَحاطتْ به الأَحزانُ من كُل جانبِ
تَبيَّن يوم البَيْن أنى أعتزامَه ... على الصَّبرمن إحدى الظُّنون الكواذب
حرامٌ على رامِى فُؤادى بسَهمه ... دَمٌ صبَّه بين الحَشَى والتَّرائب
أراق دماً لولا الهوى ما أراقه ... فهل بدَمى من ثائرٍ أو مُطالب

قال: فقلتُ له : ما سمعتُ أحسنَ من هذا الشعر قطُّ . فقال لى : فأُصنع فيه لحناً ، وأَحضرنى وصيفةً له ، فألقيتُه عليها حتى أخذتْه . وقال : إنما أردتُ أن أتسلَّى به فى طريقى وتُذكّرنى الجاريةُ أمرك إذا غَنَّته . فكان كلما ذكر أتانى برُّه ، إلى أن قدم ، عدة دَفَعات .

خروجه مع الرشيد إلى الرقة وقصته بدير القائم وتل عزاز

وحَكى إسحاق قال :

خرجنا مع أمير المؤمنين هارون الرّشيد يريد الرَّقة ، فلما صِرْنا بالموضع الذى يقال له : دير القائم [1] نزلنا وخَرج يتصيّد وخرجنا معه ، فأَبعد فى الصيد وطَلَبه ، ولاح لى دَيْر فقصدتُه وقد تعبتُ . فأشرفتُ على صاحبه ، فقال : هل لك فى النُّزول بنا اليوم ؟ فقلت : إى والله ، وإنى إلى ذلك لمُحتاج . فنزل ففَتح لى البابَ وجلس يُحَدِّثنى ، وكان شيخاً كبيراً قد أدرك دولة بنى أمية ، فجعل يُخبرنى عمَّن نَزل به من القوم ومَواليهم وحَشمهم [2] ، وعَرض علىّ الطَّعام . فأجبتُه . فقدَّم إلىّ طَعاماً من طعام الدِّيارات نَظيفاً طيِّباً ، فأكلتُ منه . وأتانى بشراب وريْحان طَرِىٍّ ، فشربتُ

(١) فى الأغانى : « القائم » مكان « دير القائم » . ودير القائم : على شاطىء الفرات من جانبه الغربى .

(٢) فى الأغانى : « وجيوشهم » .

منه . ووكَّل بى وبخِدْمتى جارية راهبةً لم أَر أحسن منهـا وجهاً ولا أشكل . فشربتُ حتى سكرتُ . ونمْتُ فانتبهتُ عشاءً ، فقلت فى ذلك :

بدَيْر القـائم الأَقْصى غزالٌ شـارِدٌ أَحوَى
بَرَى حُبِّى له جِسْمى ولا يَعـــلم ما ألْقى
وأُخـفى حُبَّـه جُهْدى ولا والله ما يَخـفى

وركبتُ ولحقتُ بالعسكر، والرشيدُ قد جلس للشرب وطلبنى فلم أُوجد. فأُخبرت بذلك . فغنَّيت فى الأبيات ودخلتُ إليه . فقال لى: أين كنتَ ؟ ويحك ! فأخبرتُه الخبر وغنَّيته الصوتَ . فطَرِب وشَرب عليه حتى سكر وأخَّر الرحيلَ فى غد ، ومَضينا إلى الدَّير فنزَله ، ورأى الشيخَ فاستنطقه ، ورأى الجارية التى كانت بالأمس تخدُمنى . فدعا بالطعام فأَصاب منه، ودعا بالشراب ، وأَمر الجارية أن تتولَّى خِدمَته وسَقيه ، ففعلتْ وشربَ . حتى طابتْ نفسه . ثم أمر للدَّيرانى بألف دينار ، وأمر باحتمال خراج مزارع كانت له سَبْع سنين ، ورحلنا .

دخل على الرشيد مغنياً فأجازه

وحكى إسحاقُ قال :

دخلتُ على الرَّشيد يوماً فى عِمامة قد كوَّرتُها على رأسى ، فقال : ما هـذه العمامة ؟ كأنك من أهل الأنبار . فلما كان من غدٍ دعا بنا إليـه ، فأمهلتُ حتى دخل المُغنّون جميعاً . ثم دخلتُ عليه فى آخرهم، وقد شددتُ وسطى بمِنْدَّة حرير، ولبستُ لباساً مُشتَهِراً ، وأخذتُ بيـــدى صَفَّاقَتَيْن ، وأقبلتُ أَخطِر وأَضرب بالصفَّاقتين وأُغنى :

اُسمعْ لصـوتٍ مليحٍ من صَنْعة الأَنبـارى
صوتٍ خَفيفٍ ظريفٍ يطـيرُ فى الأَوتار

فبسط يديه إلىّ حتى كاد يقوم ، وجعل يقول : أحسنتَ وحياتى ! أحسنت !

أحسنت ! حتى جلستُ . ثم شَرب عليه بقيّـة يومه ، ما اُستعاد غَيره ، وأمر لى بعشرين ألف دِرهم .

اغتم لصوت أخذه عنه أحد العامة

وحكى إسحاقُ قال :

ما اغتممتُ بشىء قطُّ كما اُغتممتُ بصوت مليح صنعتهُ فى هذا الشعر :

كان لى قلبٌ أعيش به ... فاُكتوى بالنَّار فاُحترقَا

أنا لم أُرزَقْ مَحبّتهـا ... إنما للعبـد ما رُزِقا

مَن يكن ما ذاق طَعْم رَدًى ... ذاقه لا شكَّ إن عَشِقا

فإنى صنعتُ فيه لحناً وجعلت أُردِّده فى جَناح لى سَحَراً ، فأظُن أن إنسـاناً مَرّ بى فَسمعه فأخذه منِّى . و بكّرتُ من الغد إلى المُعتصم لأُغنيه به ، فإذا بسوَّاط يَسُوط الناطف[1] و يُغنى اللحن بعينه ، إلا أنه غِناء فاسد . فعجبتُ وقلت : تُرى من أين لهذا السوَّاط هذا الصوت ! ولعلِّى إذ غنيته أن يـكون قد مرَّ بى هذا فسمعنى أغنيه ! و بقيت متحيراً . ثم قلت : يا فتى ، ممن سمعت هذا الصوت ؟ فلم يُجبنى ، واُلتفت إلى شريكه ، فقال : هذا يسألنى ممن سمعتهُ ! هذا غنائى ! والله لو سمعه إسحاق لَجرىء فى سراويله . فبادرتُ والله هارباً خوفاً من أن يَمُر بى إنسان فيسمع ما جَرى علىَّ فأفتضح ، وما عَلم الله أنى نطقت بذلك الصوت بعدها .

دخوله بيتاً متطفلا

وحكى إسحاق الموصلى قال :

غدوتُ يوماً وأناضَجِرٌ من مُلازمة دارِ الخليفة والخِدْمة فيها . فخرجتُ وركبتُ بُـكْرةً وعزمتُ على أن أَطوف الصحراء وأتفرَّج ، وقلتُ لغلمانى : إن جاء رسولُ للخليفة أو لغـيره فعرِّفوه أنى بكّرت فى بعض مُهمّاتى ، وأنـكم لا تعـرفون أين

(١) السواط ، من ساط الشىء ، إذا خلطه . والناطف : ضرب من الحلوى ، لأنه ينطف قبل استضرابه .

توجّهت . ومَضيت فطُفْت ما بدالى ، ثم عُدت وقد حَمِى النهار ، فوقفتُ فى شارع المُخرَّم[١] فى فِناء شديد الظّل وجَناح رَحْب على الطريق لأستريح ، فلم ألبث أن جاء خادمٌ يقود حماراً عليه جارية راكبة، تحتها مِنْديل دَبيقىّ[٢] ، وعليها من اللّباس الفاخر ما لا غاية بعده ، ورأيتُ لها قَواماً حَسَناً وطَرْفاً فاتراً وشمائل حسنة . فخَرَصْتُ[٣] عليها أنها مُغنية . فدخلتِ الدار التى كنتُ واقفاً عليها . ثم لم ألبث أن أقبل رجلان شابّان جميلان ، فاستأذنا فأُذن لهما . فنزلا ، ونزلتُ معهما ودخلتُ . فظنّا أنّ صاحب البيت دَعانى، وظنّ صاحبُ البيتَ أنّى معهما. فجلسنا. وأُتى بالطَّعام فأكلنا ، وبالشَّراب فوُضع . وخرجت الجارية وفى يدها عودٌ ، فغنَّت وشَربْنا ، وقمتُ قومةً . فسأل صاحب الدار الرجلَين عنِّى . فأخبراه أنهما لا يعرفانى . فقال: هذا طُفيلى ولكنه ظَريف ، فأجملوا عِشْرته . وجئتُ فجلستُ ، فغنَّت الجارية فى لحن لى :

ذكرتُكِ أن مرَّت بنا أُم شادنٍ أمامَ المطايا تشرئبّ وتَسْنَحُ

فأدَّته أداء صالحاً ، وشربتُ . ثم غَنَّت أصواتاً شتى ، وغنَّت فى أضعافها من صَنعتى :

الطُّلولُ الدَّوارسُ فارقتها الأَوانسُ
أقفرتْ بعد أهلها فهى قَفرٌ بَسَابِسُ

فكان أمرها فيه أصلحَ من الأول . ثم غنّت أصواتاً من القديم والحديث ، فى أضعافها من صنعتى:

قُل لمن صَدَّ عاتبَا ونأى عنك جانبَا
قد بلَغْت الذى أَردْ تَ وإن كنتَ لاعبَا

(١) المخرم : بالجانب الغربى من بغداد .
(٢) نسبة إلى دبيق ، بليدة بمصر كانت بين الفرما ومنفيس .
(٣) خرصت : ظننت وخمنت .

فكان أصلحَ ما غنَّته . فاستعدتُه منها لأُصلحه لها . فأقبل علىّ رجلٌ من الرجلَين فقال: ما رأيتُ طفيليًّا أَصفق وجهاً منك، لم ترض بالتَّطفل حتى اُقترحت، وهذا غايةُ المثل : طُفيلى مُقترح ! فأطرقتُ ولم أُجبه ، وجعل صاحبُه يكُفّه عنّى . ثم قاموا للصلاة وتأخّرتُ قليلاً ، وأخذتُ العُود وشددتُ طَبقته وأصلحتُه إصلاحاً مُحكماً ، ثم عدتُ إلى موضعى فصلَّيت ، وعادوا . فأخذ ذلك الرجلُ فى عَربدته علىّ وأنا صامتٌ . ثم أخذتِ الجاريةُ العودَ فجسَّتْه وأنكرتْ حاله ، وقالت : من مَسَّ عُودى ؟ قالوا : ما مَسّه أحدٌ . قالت : بلى ! والله قد مسّه حاذقٌ متقدّم وشدَّ طبقته وأَصلحه إصلاحَ متمكِّنٍ من صناعته . فقلتُ لها : أنا أَصلحته . فقالت : بارك الله عليك ! فخُذْه واُضرب به . فأخذتُه وضربتُ به مبدأً ظريفاً عجيباً صَعْبا ، فيه نقراتٌ مُحكمة .(١) فما بقى منهم أحدٌ إلاّ وَثَب وجَلس بين يدىّ وقال : بالله يا سيّدنا أتُغنِّى ؟ قلتُ : نَعم ، وأُعرِّفكم نفسى : أنا إسحاقُ ابن إبراهيم المَوصلىّ ، ووالله إنى لأَتيهُ على الخليفة إذا طَلَبنى وأنتم تُسمعوننى ما أَكره منذ اليوم لأنى تَملّحْتُ معكم ، ووالله لا نطقتُ بحرفٍ ولا جلستُ معكم حتى تُخرجوا هذا المُعربد المَقيتَ الغَثَّ . فقال له صاحبُه : دِن هذا حَذرتُ عليك. فأخذ يعتذر . فقلتُ : والله لا نطقتُ بحرف ولا جلست معكم حتى يُخْرَج . قال : فأخذوا بيده فأخرجوه وعادوا . فغنَّيت الأصواتَ التى غنَّتها الجاريةُ من صنعتى . فقال لى الرجُل : هل لك فى خَصلة ؟ فقلت : وما هى ؟ قال : تُقيم عندى شهراً والجارية والخادمُ والحمارُ لك ، مع ما عليها من حُلىّ ؟ قلت: أفعل . فأقمتُ عنده ثلاثين يوماً لا يعرف أحد أين أنا ، والمأمونُ يَطلبنى فى كل موضع فلا يَعرف لى خبراً . فلما كان بعد ثلاثين يوماً سلَّم إلىّ الجاريةَ والحمارَ والخادمَ . فجئتُ بذلك إلى منزلى وركبتُ إلى المأمون من وقتى . فلما رآنى قال : إسحاق ؟ ويحك !

(١) فى الأغانى : « محركة » .

أين تكون ؟ فأخبرتُه . فقال : علىّ بالرَّجل الساعةَ . فدللتُهم عليه ، فأحضروه . وسأله المأمون عن القصة ، فأخبره . فقال له : أنت رجلٌ ذو مروءة وسبيلُك أن تُعان على مروءتك . فأمر له بمائة ألف درهم . وأمر لى بخمسين ألف درهم . وقال : أحضرنى الجارية فأحضرتُها . فغنّته . فقال لى : قد جعلتُ عليها نوبةً فى كُل يوم ثُلاثاء تُغنينى من وراء الستارة مع الجوارى . وأمرتُ لها بخمسين ألف درهم . فربحتُ والله بتلك الرَّكْبة وأَرْبحتُ .

هو والواثق فى دير مارت مريم

وحكى إسحاق الموصلى قال :

لما خرجتُ مع الواثق إلى النَّجف دُرْنا بالحِيرة ومَررنا بدياراتها . فرأيتُ دير مارت مَريم بالحِيرة ، فأعجبنى موقعُه وحُسن بنائه ، فقلتُ :

نِعْمَ المحلُّ لمن يسعى للذَّته ... دَيْرٌ لمريم فوق الظَّهر معْمُورُ
ظِلٌّ ظَليلٌ وماء غيرُ ذى أَسَنٍ ... وقاصراتٌ كأمثال الدُّمَى حُور

فقال الواثق : لا نَصطبح والله إلّا فيه غداً ، وأمر بأن يُعَدَّ ما يَصْلُح من الليل فيه . وباكرناه وأصطبحنا فيه على هذا الصوت . فأمر بمالٍ يُفرَّق على أهل ذلك الدَّير ، وأمر لى بجائزة .

غنى عبد الله ابن طاهر فوصله

وحكى إسحاق قال :

خرج إلىّ عبدُ الله بن طاهر ببيتى شعر فى رُقعة وقال : هذان البيتان وجدتُهما على بساط طَبَرىّ أصْبَهْبُذِىّ[1] أهدى إلىّ من طَبَرِستان ، فأُحب أن تُغنِّى لى فيهما . فقرأتهما فإذا فيهما :

لجَّ بالعَيْن واكفُ ... مِن هَوًى لا يُساعِفُ
كُلّما كفَّ[2] غَرْبُها ... هَيَّجَتْه المعازِفُ

(١) نسبة إلى أصبهبذان : بلد بالديلم .
(٢) الغرب : الدمع .

قال : فغنّيت فيهما وغدوت بهما إليه . فأُعجب بالصوت ووصَلنى صلةً سنيّة. وكان يَشتهيه ويَقترحه . وطرحتُه على جواريه ، وشاع خبر إعجابه . فبينا المُعتصم جالسٌ يُعرض عليه فرشُ الرَّبيع إذ مرّ به بساطُ ديباج فى نهاية الحُسن عليه هذان البيتان ، ومعهما :

إنما الموتُ أن تفا ... رقَ من أنت آلِفُ
لك حُبّان فى الفؤا ... د تليدٌ وطارِف

فأَمر بالبساط فحُمل إلى عبد الله بن طاهر . وقال للرسول : قُل له : إنى عرفتُ شَغفك بالغناء فى هذا الشعر ، فلما وقع هذا البساطُ أحببتُ أن يتمّ سرورُك به . فشكر عبدُ الله بن طاهر ما تأدّى إليه من هذه الرسالة وأعظم مقدارَه، وقال لى : يا أبا محمد ، لسُروري بتمام الشِّعر أحبُّ إلى من سُروري بكل شيء ! أَلْحقهما بالغناء فى البيتين الأولين . فألحقتُهما .

هو بعد أن كف فى حضرة المتوكل

وحُكى أن إسحاق كُفّ بصرُه فى آخر عمره . ولما أفضت الخلافةُ إلى المتوكّل ابن المُعتصم سأل عنه ، فعرف أنه كُف بصره وأنه فى مَنزله ببغداد ، فكتب فى إحضاره . فلما دخل إليه رَفعه حتى أجلسه قُدّام سريره وأعطاه مِخدّة وقال له : بَلغنى أن المعتصمَ دفع إليك مخدةً فى أول يوم جلست بين يديه وهو خليفة وقال: إنه لا يُستجلب ما عند حُرٍّ بمثل الكرامة . ثم سأله : هل أكل؟ قال :نعم . فأمر أن يُسْقَى . فلما شَرب أقداحاً قال : هاتُوا لأبى محمد عُوداً . فجىء به . فاندفع يُغنّى بشعره ولَحنه :

ما عِلّة الشّيخ عيناه [1] بأَربعةٍ ... تَغْرَورقان بدَمْعٍ ثم تَنْسكبُ

فما بَقى غلامٌ من الغِلمان الوقُوف على الحَيْر [2] إلا وجدتُه يرقُص طرباً وهو لا يعلم

(١) أى عيناه تدمعان بأربعة آماق ، وذلك أشد البكاء .

(٢) الحير : قصر للمتوكل يسر من رأى . وفى التجريد : « الخيل » .

بما يفعل . فأمر له بمائة ألف درهم . ثم قال المتوكل لابن حمدون : تحسن أن تغنى هذا الصوت ؟ فقال : نعم . فقال : غنه .فترنّم به . فقال إسحاق : من هذا الذى يحكينى ؟ فقال حمدون : أنت عرّضتنى له يا أمير المؤمنين . ثم انحدر المتوكل إلى رقّة بوصرا ،(١) وكان يستطيبها لكثرة تغريد الطّير فيها . فغنّاه إسحاق :

أأن هتفتْ وَرقاء فى رَوْنق الضُّحَى ... على غُصُنٍ غضِّ النَّبات(٢) من الرَّنْدِ
بكيتَ كما يبكى الوليدُ ولم تكُن ... جليداً وأبديت الذى لم يَكن(٣) يُبْدى

فضحك المتوكل ثم قال له : ياإسحاق . هذه أُخت فعلتك بالواثق لمّا غنيته (٤) بالصالحيه :

طَرِبتُ إلى الأَصيْبِية الصِّغار ... وذكّرنى الهوى قُرْب المَزارِ

. فكم أعطاك لمّا أَذِن لك فى الانصراف ؟ قال : مائة ألف درهم. فأمر له بمائة ألف درهم ، وأذن له بالانصراف إلى بغداد . فكان آخر عهده به .

مرضه ولونه

وذُكر أن إسحاق كان يسأل الله ألّا يبتليه بالقُولنج ، لما رأى من صُعوبته على أبيه إبراهيم . فأُرى فى منامه كأن قائلاً يقول له : قد أُجيبت دعوتُك ولست تموت بالقُولنج ولكنّك تموت بضدِّه . فأصابه ذَرَب فى شهر رمَضان سنة خمس وثلاثين ومائتين. فكان يتصدّق فى كل يوم بمكنه صَوْمه بمائة درهم ، ثم ضَعُف من الصوم فلم يُطقه . ومات فى شهر رمضان من هذه السنة .

حزن المتوكل عليه وعلى أحمد بن عيسى

ولما نُعى إسحاق إلى المتوكل غمّه وحَزِن عليه وقال: ذَهب صدرٌ عظيم من

(١) بوصرا : من قرى بغداد .
(٢) فى الأغانى : « الشباب » .
(٣) الرواية فى الأغانى :
بكيت كما يبكى الحزين صبابة ... وشوقاً وتابعت الحنين إلى نجد
(٤) الصالحية : قرية قرب الرها اختطها عبد الملك بن صالح .

جَمال المُلك وبَهائه وزِينته . ثم نُعى إليه بعده أحمدُ بن عيسى بن زَيد بن علىّ ابن الحُسين ، فقال؟ تكافأت الحالان ، وقام الفتح بوفاة أحمد — وما كنت آمن وثبته علىّ — مقامَ الفجيعة بإسحاق ، والحمد لله على ذلك .

لبعضهم عن وفاته

وحكى بعضُهم قال :

رأيت فيما يرى النائم قائلاً يقول :

مات الحُسان ابن الحُسا ن ومات إحسانُ الزَّمانِ

فأصبحتُ من غدٍ فركبتُ فى بعض حوائجى، فتلقّانى خبر وفاة إسحاق الموصلى .

شعر أحمد بن إبراهيم فى رثائه

ورثاه أحمدُ بن إبراهيم بقوله :

لله أىّ فَتًى إلى دار البِلَى حَمل الرجالُ ضُحًى على الأَعوادِ

كم من كريمٍ ما تَجِفُّ دمُوعُه من حاضرٍ يَبْكى عليه وبادِى

أمسى يُؤَبِّنُه ويعرف (١) قدرَه من كان يَثلبه من الحُسّاد

فسقتْك يا بن المَوْصلىّ روائحٌ تَرْوِى صَداكَ بصَوْبها وغَوادِى

(١) فى بعض الأصول : « فضله » مكان « قدره » .

أخبار الصِّمّة القشيرى

نسبه

هو الصِّمَّة بن عَبد الله بن الطُّفَيل بن قُرة بن هُبيرة بن عامر بن مَسلَمة الخَير بن قُشير بن كَعب بن رَبيعة بن عامر بن صَعصعة بن مُعاوية بن بَكر ابن هَوازِن بن مَنصور بن عِكْرمة بن خَصفَة بن قَيس بن عَيْلان بن مُضر ابن نِزَار .

طبقته

شاعر إسلامىّ من شُعراء الدَّولة الأُموية .

شىء عن جده

وجدُّه قُرَّة بن هُبيرة ، له صُحبة بالنبىّ صلّى الله عليه وسلم ، وهو أحد الوافدين عليه صلّى الله عليه وسلّم .

حديث حبه وزواجه

قيل : كان الصِّمة القُشيرى يَهْوى اُمرأةً من قومه ، ثم بنى عمّه ، يقال لها : العامرية بنت غُطَيف بن حَبيب بن قُرّة ، فخطبها إلى أبيها ، فأَبى أن يزوِّجه إياها. وخَطبها عامرُ بن بِشر بن أبى بَرَاء عامر بن مالك مُلاعب الأَسنَّة بن جعفر بن كِلاب ، فزوَّجه إياها . وكان عامرٌ قصيراً قَبيحاً ، فلما بَنى بها عامرٌ وَجد عليها الصِّمّة وجداً شديداً ، فزوَّجه أهلُه اُمرأة منهم ، فأقام معها ، ثم رحل إلى الشام ، وقال :

لَعَمْرِى لئن كنتم على النأى والقِلَى ... بكم مثلُ ما بى إنكم لصَديقُ

إذا زَفراتُ الحُبِّ صَعَّدْن فى الحَشَى ... رُدِدْنَ فلم يُنْهَج لهنّ طَرِيق

وقال أيضاً :

إذا ما أتتْنا الرِّيحُ من نحو أرضكم ... أتتْنا بريَّاكم فطاب هُبوبُها

أتتْنا بريح المِسْك خالطَ عَنْبَراً ... وريحِ الخُزَامى باكرتْها جَنُوبُها

وقال أيضاً :

ألاَ تسألان الله أن يَسْقِيَ الحِمَى ... بَلَى فسقَى الله الحِمَى (١) والمَطَالِيَا

وأسألُ من لاقيتُ هل مُطِرَ الحِمَى ... فهل يسألنْ أهلُ الحمى (٢) كيف حاليا

موته بطبرستان

وذُكر أن الصِّمَّة خرج فى عسكر للمُسلمين لغَزْوِ الدَّيلم ، فمات بطَبَرِسْتان . فحكى رجلٌ من أهل طَبَرستان قال : بينا أنا أمشى فى ضيعة لى فيها ألوانٌ من الفاكهة والزَّعفران وغير ذلك من الأشجار ، و إذا أنا بإنسان فى البُستان مَطروح ، عليه أثوابٌ خُلْقان ، فدنوتُ منه فإذا هو لا يتحرَّك ولا يتكلَّم ، فأصغيتُ إليه ، و إذا هو يقول بصوت خَفِيّ:

تَعَزَّ بصبرٍ لا وجَدِّكَ لا تَرَى ... بَشَامَ (٣) الحِمَى أُخْرَى الليالى الغَوابِرِ

كأنّ فُؤادى من تذكّره الحِمَى ... وأهلَ الحِمَى يَهْفُو به ريشُ طائر

فما زال يردِّد هذين البيتين حتى فاضتْ نفسُه . فسألتُ عنه ، فقيل لى : هذا الصِّمَّة بن عبد الله القُشيرىّ .

أبيات له كان يستحسنها ابن الأعرابى

قيل :

وكان ابنُ الأعرابىّ يستحسن قولَ الصمة :

أما وجَلالِ الله لو تذكُرِيننى ... كذِكْرِيكِ ما كفكفتِ للعين مَدْمَعَا

بلى وجلالِ الله (٤) ذكراً لو أنه ... يُصَبّ على صُمِّ الصَّفَا لتصدَّعا

---

(١) المطالى : الروضات ؛ الواحدة : مطلى ، بالقصر . وقيل : هى المواضع التى تغذو فيها الوحش أطلاءها .

(٢) رواية الأغانى : « فهل يسألن عنى الحمى » .

(٣) البشام : شجر طيب الريح والطعم يستاك به .

(٤) فى الأغانى : « فقالت بلى والله » .

وهذا الشِّعر من قَصيدة يقول فيها :

حَنَنْتَ إلى ريَّا ونفسُك باعدتْ مَزَارَك من رَيَّا وشَعْبا كُما مَعَا

ومن هذه القصيدة أبياتٌ ذُكرت فى أخبار المجنون ، عَزاها أبو الفرج إليه.

شعره الذى فيه الغنـــاء

والشِّعر الذى فيه الغِناء له ، وافتتح به أبو الفَرج أخبارَه ، هو :

ألا قاتل الله اللِّوى من مَحـــلَّة وقاتل دُنْيانا بها كيف[1] ذَلَّت

غَنِينا زَماناً باللِّوى ثم أَصبحتْ عِرَاصُ اللِّوى مِن أهلها قد تَخلّت

(١) فى التجريد : « ولت » مكان « ذلت » .

أخبار داود بن سلم

ولاؤه ونسبه

هو مولى آل تَيْم بن مُرَّة . فقيل : إنّه مولى آل أبى بكر رضى الله عنه . وقيل: إنّ أباه رجلٌ من النَّبط، وقيل : مولى آل طَلحة . وأُمه بنت حَوْط، مولى عُمر بن عُبيد الله بن مَعْمر التّيمى . فانتسب إلى ولاء أُمه .

طبقته

وهو شاعر مُخضرم الدَّولتين : العبّاسية والأُموية .

سبب كنيته بالأدلم

وكان يقال له : الأَدلم ، لشدّة سواده .

شىء عن بخله

وذُكر أنه كان من أبخل الناس ، فطرقه قومٌ وهو بالعَقيق فصاحوا به : العَشاء والقِرى يا ابن سلم ! فقال لهم . لا عَشاء لكم عندى ولا قِرى . قالوا : فأين قولُك فى قصيدتك :

يا دارَ هِنْدٍ ألاَ حُيِّيتِ من دارِ ... لم أَقْضِ منك لُباناتِى وأَوْطارِى

إذ تقول فيها :

عودتُ نَفسى إذا ما الضَّيفُ نَبَّهنى ... عَقْرَ العِشارِ[1] على يُسْرِى و إعْسارى

فقال : لستُم من أولئك الذين عنيتُ .

شعره يمدح قثم بن العباس

وقيل :

كان داود بن سَلْم مُنقطعاً إلى قُثم بن العبّاس الهاشمىّ ، وفيه يقول :

أُعْتِقْتِ من حِلٍّ ومن[2] رِحلةٍ ... ياناقُ إن أَدنيتِنى من قُثَمْ

(١) العشار : من النوق ما مضى لحملها عشرة أشهر ؛ الواحدة عشراء . والرواية فى بعض أصول الأغانى : « عودت فيها » مكان « عودت نفسى » .

(٢) فى الأغانى :

* عتقت من حلى ومن رحلتى *

إنّك إن أدْنيتِ منه غداً حالفنى اليُسر ومات العدَم
فى وجهه بدرٌ وفى كفّه بحرٌ وفى العِرْنِين منه شَمَم
أصمُّ عن قيل الخَنا سَمعُه وما عن الخير به من صَمَم
لم يدر ما «لا» و «بلى» قد درَى فعافَها واُعتاض منها «نَعم»

شعره فى جارية هويها قثم وفاته شراؤها

وحَكى داود قال:

كنتُ يوماً جالساً مع قُثم بن العبّاس قبل أن يُملَّكوا بغنائه، فمرتْ بنا جاريةٌ فأُعجب بها قُثم وتمنّاها، فلم يُمكنه ثمنُها. فلما ولِى قُثم اليمامةَ اشْترى الجاريةَ إنسانٌ يقال له: صالح. فكتبتُ إلى قُثم:

يا صاحبَ العِيسِ ثُم راكبها بلِّغ إذا ما لقيتَه قُثَما
أنّ الغَزال الذي أجاز بنا مُعارِضاً إذ توسَّط الحَرَما
حوَّله صالحٌ فَصار مع الْ إنْس وخَلَّى الوحُوش والسَّلَما

فأرسل قُثم فى طلب الجارية ليشتريها، فوجدها قد ماتت.

مدح حرب بن خالد فأجازه

وقيل: أتى داوُد بن سَلْم إلى حَرب بن خالد بن يزيد بن مُعاوية بن أبى سُفيان. فلما نَزل به حَطّ غلمانُه متاع داود وحلُّوا عن راحلته، فلما دخل عليه قال:

ولما دَفعتُ لأبوابهم ولاقيتُ حرباً لَقِيتُ النَّجاحا
رأيناه (١) يَحمده المُجتدون ويأبَى على العُسر إلّا سَماحا
ويُغْشَون حتى يُرى كَلْبُهم يَهابُ الهَرِير ويَنسَى النُّباحا

فأجازه بجائزة عظيمة. ثم اُستأذنه فى الخروج، فأَذن له وأعطاه ألف دينار. فلم يُعنِهْ أحدٌ من غِلمانه ولم يقوموا إليه، فظنّ أن حَرباً ساخطٌ عليه، فرجع إليه

(١) فى الأغانى: «وجدناه».

فأخبره بما رأى من غِلمانه . فقال له : سَلْهم لِمَ فعلوا بك ذلك ؟ فسألهم . فقالوا : إنا نُنزل من جاءنا ولا نُرْحِل مَن يخرج عنّا . فسمع الغاضرىّ حديثَه ، فأتاه فحدّثه ، فقال : أنا يهودى إن لم يكن الذى قال لك الغلمانُ أحسنَ من شعرك !

من جيد شعره

ومن جيد شعر داود قولُه :

وما ذَرّ قَرن الشّمس إلا ذكرتُها ... وأذكرها فى وقت كُلّ غُروبِ
وأذكرها ما بين ذاك وهذه ... وباللّيل أحلامى وعند هُبوبى
وقد شَفَنى شَوقى وأبلانِىَ (١) الهَوى ... وأعيا الذى بى طِبَّ كُلِّ طَبيب
وأعجبُ منّى (٢) لا أموتُ صَبابةً ... وما كَمَدٌ من عاشقٍ بعَجيب
وكُل مُحبٍّ قد سَلا غير أنّنى ... غريبُ الهَوى يا وَيْحَ كُلِّ غَريب
وكم لامنى (٣) فيها أَخٌ ذو نَصيحةٍ ... فقلتُ له أَقْصِر فغيرُ مُصيب
أتأمر إنساناً بفُرقة قَلْبه ... أتصلحُ أجسامٌ بغير قلُوب

شعره الذى فيه الغناء

والشعر الذى فيه الغناء ، وافتتح به أبو الفرج أخبار داود بن سلم ، هو :

قُل لأسماء أنجزى المِيعادا ... وانظُرى أن تُزَوِّدى منك زادَا
إن تكونى حللتِ رَبعاً من الشأ ... م وجاورت حِمْيَراً أو مُرَادا
أو تناءتْ بك النَّوَى فلقد قُدْ ... تِ فُؤادى لَحَيْنه فأُنْقادا
ذاك أنّى علقتُ منك جَوَى الحُبِّ وليداً فزِدْتُ سِنًّا فَزادا

(١) فى الأغانى : « وأبعدنى » .
(٢) فى الأغانى : « أنى » .
(٣) فى الأغانى : « وكم لام فيها » .

أخبار دحمان

اسمه وولاؤه وشيء عنه

وهو عبد الرحمن بن عمرو ، مولى بنى لَيث بن بكر بن عَبد مَناة بن كِنانة . ويكنى : أبا عَمرو . ودَحمان لقب لُقِّب به . وكان يقال له : دَحمان الأَشقر. وكان مُعدَّلاً مَقبول الشهادة عند القُضاة بالمدينة . وكان من رُواة مَعبد وغِلمانه المتقدِّمين .

ما أفاده من المهدى مرة

وقيل :

إنه وفد إلى المهدىّ ورجع من عنده وحاصلُه مائة ألف دينار .

هو والمهدى وضيعتان وهبهما له

وغنَّى المهدىُّ ليلةً فى شعر الأحوص :

قطُوف المَشْى إذ تَمشى ... تَرى فى مَشْيِها[1] خَرَقَا

فطرب واستخفّه السرور حتى قال لدَحمان: سَلْنى. فقال : ضَيعتان بالمَدينة يقال لها : ريّان وغَالِب. فأَقطعه إياهما . فلما خَرج التَّوقيع بذلك إلى أبى عُبيد الله ،[2] وعُمر بن بَزِيع ، راجعا المهدىَّ فيه وقالا : إن هاتَيْن الضيعَتين لم يملكهما قَطُّ إلّا خَليفة ، وقد استَقطعهما وُلاةُ العهود فى أيّام بنى أُمية فلم يُقْطَعوهما . فقال : والله لا أَرجع فيهما إلا بعد أن يَرضى . فصُولح على خَمسين ألفَ دينار .

حديثه مع الوليد فى جارية اشتراها منه ثم ردها إليه

وقيل :

كان دَحمان جمَّالاً يُكْرِى إلى المواضع ويَتَّجر ، وكانت له مُروءة ، فبينا هو ذاتَ يوم قد أكْرى وأَخذ مالَه إذ سمع رنَّة . فأَتبع الصوتَ فإذا جارية قد خرجتْ تبكى ، فقال لها : أمملوكةٌ أنت ! قالت : نعم . قال : لمن أنت ؟ قالت : لامرأَة

(١) قطوف المشى : بطيئة . والخرق : التحير والدهش . يصفها بالخفر والحياء .

(٢) هو أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله الأشعرى الكاتب الوزير .

من قُريش ، نَسبتْها له . فَدخل فسامها بهـا حتى ٱستقرّ أمرُ الثمن بينهما . ثم ٱشتراها منها بمائتى دينار ، ونَقدها الثّمن ، وٱنصرف بالجـارية . قال دَحمان : فأقامت عندى مُدةً أَطرح عليها ويَطرح عليها مَعبد والأَبجر ونُظراؤُهما من المُغنِّين. ثم خرجتُ بها بعد ذلك إلى الشأم ، وقد حَذِقتْ ، فـكنتُ لا أَزال إذا نزلنـا أُنزل الأَكرياء ناحيةً ، وأَنزل بها معتزلاً ناحيةً فى مَحْمِل ، وأَطرح على المحَمل من أَعْبية[1] الجمّالين ، وأجلس أنا وهى معى تحت ظلّها ، فأُخرج شيئاً فنأكله ، وأضع رَكْوةً [2] فيها شرابٌ ، فنَشرب ونتغنّى حتى نَرحل . فلم نَزل كذلك حتى قَرُبنا من الشام ، فبينا أنا ذاتَ يومٍ نازلٌ ، وأنا أُلقى عليها لَحنى :

لو رَدّ ذو شَفقٍ حِمـامَ مَنيّةٍ لرددتُ عن عبد العزيز حِماما

صـلّى عليك اللهُ من مُستودعٍ جاورتَ رِمّا [3] فى القُبور وهاما

والشعر لإسماعيل بن يسار . [4] قال : فرددتُه عليهـا حتى أخذتْه وٱندفعت تُغنيه ، فإذا أنا براكبٍ قد طلع يسلّم علينا . فرددنا عليه السلام . فقال : أتأذنون لى أن أنزل تحت ظلّـكم هذا سـاعةً ؟ قلنا : نعم . فنزل . وعَرضْنا عليه طعامنـا وشَرابنا فأجاب . فقدّمنا إليه السُّفرة ، فأكل وشَرب معنا ، وٱستعاد الصوتَ مراراً . ثم قال للجارية : أتُغنِّين لدَحمان شيئاً ؟ قالت : نعم . قال : فغنّينى صوتاً من صنعته . فغنّته أصواتاً من صَنعتى ، وغمزتُها ألّا تُعرفه أنّى دَحمان . فطَرِب وٱمتلأ فرحاً وسُروراً ، وشَرب أقداحاً ، والجارية تُغنّيه ، حتى قَرُب وقتُ الرَّحيل . فأَقبل علىّ وقال : أَتَبيعنى هذه الجارية ؟ فقلت : نعم . فقال : بكم ؟ فقلت له ، كالعابث : بعشرة آلاف دينار . فقال : قد أخذتُها ، فهلُمّ قِرطاساً ودواة . فجئتُ بذلك .

(١) الأعبية : الأكسية : جمع : عباء .
(٢) الركوة : إناء صغير من جلد .
(٣) فى الأغانى : « بوما » .
(٤) روى هذا الشعر فى الأغانى لكثير . وقيل : هو لعبد الصمد بن على الهشامى .

فكتب : أُدفع إلى حامل كتابى هذا ساعةَ تقرؤه عشرةَ آلاف دينار ، واُستوْص به خيرا ، وأَعْلِمنى بمكانه . وختم الكتاب ثم قال : أتدفع لى الجارية أم تكون معك حتى تقبض مالَك ؟ قلت : بل أدفعها إليك . فحملها ثم قال : إذا جئتَ البَخْراء [1] فاسأل عن فُلان واُدفع كتابى هذا إليه واُقبض منه مالَك . واُنصرفَ بالجارية . قال : ومضيتُ ، فلمّا وردتُ البَخْراء سألتُ عن اُسم الرجل ، فدُلِلْتُ عليه ، فإذا دارُه دارُ مُلك ، فدخلتُ عليه ودفعتُ التَّوقيع إليه . فقبَّله ووَضعه علي عَيْنيه ودعا بعَشرة آلاف دينار وقال : هذا كتاب أمير المؤمنين ، وقال : اُجلس حتى أُعلم أميرَ المُؤمنين بك . فقلت له : حيث كنتُ فأنا عبدُك و بين يدَيْك . وكان أَمر لى بأَنزال ، [2] وكان بَخيلاً ، فاَغتنمتُ ذلك فارتحلتُ . وقد كنتُ أُصبتُ بجمَلين . وكانت عدّة أجمالى خمسة عشر فصارتْ ثلاثةَ عشر . وسأل عنّى الوليدُ فلم يَدْر القَهرمان أين يطلُبنى . فقال له الوليد : عدةُ أجماله خمسةَ عشر جملاً ، فاُردُدْه إلىّ ، ولم يعرف اسْمى فيسأل عنى . وأقامت الجاريةُ عنده شهراً لا يسأل عنها ، ثم دعاها ، بعد أن اُستُبْرئت [3] وأُصلح شأنُها . وظَلّ معها يومَه ، حتى إذا كان فى آخر النّهار قال لها : غنّى لدَحمان . فغنّت . فقال لها : زيدى . فزادتْ . ثم أقبلت عليه وقالت : يا أمير المؤمنين ، أو ما سمعتَ غناء دَحمان منه ؟ قال : لا . قالت : بلى والله لقد سمعتَه ؟ قال : وما ذاك ؟ ويحك ! قالت : إنّ الرجل الذى اُشتريتَنى منه هو دَحمان . قال : أوَ ذلك هو ؟ قالت : نعم . هو هو . قال : وكيف لم أعلم ! قالت : غَمزنى ألّا أُعلمك . فأَمر فكُتب إلى عامل المدينة بأن يُحمل إليه دَحمان . فُحمل إليه . فلم يَزل أثيراً عنده .

---

(١) البخراء : على ميلين من القليعة فى طرف الحجاز .

(٢) الأنزال : جمع نزل ، بضمتين ، أو ضم فسكون ، وهى ما يهيأ للضيف لينزل عليه .

(٣) استبراء الجارية : ألا تمس بعد ملكها حتى تبرأ رحمها ويتبين أحامل هى أم لا .

أخبار الأعشى همدان

اسمه

هو عبدُ الرحمن بن عبد الله بن الحارث بن ظَالِم [١] بن جُشَم بن عَمرو بن الحارث بن مالك بن عَبد الجِنّ [٢] بن جُشَم بن حاشِد بن جُشَم بن خَيْران بن نَوْف بن هَمْدان بن مالك بن زَيد بن نزار بن أَوْسِلة بن رَبيعة بن الحبَاب [٣] ابن مالك بن زَيد بن كَهلان بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان .

كنيته

ويكنى : أبا المُصبّح .

طبقته وشيء عنه

شاعر فَصيح كُوفى من شُعراء الدَّولة الأُموية . وكان زوجَ أُخت الشَّعبى الفَقيه ، والشَّعبى زوج أُخته . وكان الأَعشى الهمدانى أَحد القُرَّاء والفُقهاء ، ثم ترك ذلك وقال الشِّعر .

رؤيا أولها له الشعبى

وحُكى أنه قال للشَّعبى يوماً :

إنى رأيتُ فى منامى كأنى أدخُل بيتاً فيه حِنطة وشعير ، فقيل لى : خُذ أيهما شئت . فأخذتُ الشعير . فقال له الشَّعبى : إن صدقَت رؤياك تركتَ القُرآن وقراءته وقلتَ الشعر . فكان كما قال .

أسره وحديثه مع بنت الملك

وذُكر أن الحجّاج بن يُوسف أَغْزاه الدَّيلم فأُسر ، فلم يزل أسيراً فى أيدى الدَّيلم مُدَّة . ثم إن بنتاً للعِلْج الذى أَسره هويتْه وصارت إليه ليلاً ومكَّنته من نَفسها ، فأَصبح وقد واقَعها ثمان مرّات . فقالت الدَّيلميّة : يا معشر المسلمين ، هكذا تفعلون

(١) فى الأغانى : « نظام » .
(٢) فى الأغانى : « عبد الحر » .
(٣) فى الأغانى : « الخيار » .

بنسائكم ؟ فقال لها : هكذا نفعل كُلنا . فقالت : بهذا العمل نُصرتُم ، أفرأيتَ إنْ خلّصتُك أتَصطفينى لنفسك ؟ فقال : نعم ، وعاهدها . فلما كان الليل حلَّت قُيوده وأخذتْ به طريقاً تَعرفها حتى خلّصته . فقال شاعرٌ من أسرى المُسلمين :

فمن كان يَفْديه من الأسْر مالُه ... فهَمْدانُ تَفديها الغَدَاةَ أُيورُهـــا

وقال الأَعشى قصيدتَه فى أَسره ، التى أولها :

لمن الظَّعـائنُ سـيرُهنّ تَرجُّفُ ... عَوْمَ السَّفين إذا تَقاعس[1] تَجْذِفُ

مَرّت بذى خُشُبٍ[2] كأنَّ حمُولَها ... نَخْـلٌ بيَثرب حَمْـلُه مُتضعِّفُ

ومنها :

بانَ الخليطُ وفاتنى برَحيـلِه ... خَوْدٌ إذا ذُكرتْ لقَلبك يُشْغَف

تَجلو بمِسْـواك الأَراكِ مُنظَّمـا ... عَـذْباً إذا ضَحكت تَهلَّل يَنْطُف

وكأنّ رِيقَتها على عَلَل الـكَرَى ... عَسَلٌ مُصفًّى فى القِلال[3] وقَرْقَف

وكأنهـا نَظرت بعَينى ظَبيـةٍ ... تَحنُـو على خِشْفٍ لها وتَعطَّف

وإذا تَنُوء إلى القِيـام تَدافعتْ ... مثلَ النَّزيف[4] ينُوء ثُمَّت يَضْعُف

ثَقُلت روادفُهـا ومال بخَصْرها ... كَفَلٌ كما مال النَّقَا المُتقصِّف

ومنها :

تلك التى كانتْ هـواىَ وحاجـتى ... لو أنّ دارًا بالأَحبَّـة تُسْعِف

وإذا تُصِبْك من الحوادث نَـكبةٌ ... فاُصـبر فـكُلّ مُصيبة ستَكَشَّف

---

(١) تجذف : تسرع . وفى بعض أصول الأغانى : « مجذف » .

(٢) ذو خشب : واد على مسيرة ليلة من المدينة .

(٣) القلال : جمع قلة ، وهى الكوز الصغير ، أو الجرة ما كانت . والقرقف : الخمر .

(٤) النزيف : السكران .

ولئن بكيتُ من الفِراق صَبابةً ... إنّ الكبير إذا بكى ليُعَنَّف
عجباً من الأيام كيف تَصرَّفت ... والدارُ تدنو مَرَةً[1] وتقذَّف
أصبحتُ رهناً للعُداة مُكبَّلاً ... أُمسى وأُصبح فى الأداهم أَرْسُف
واُستنكرتْ ساقِ الوَثاقَ وساعِدِى ... وأنا اُمرؤٌ بادى الأَشاجع[2] أَعْجف
ولقد تُضرِّسنى الحرُوبُ وإننّى ... أُلْفَى بكُل مخافة أتعسَّف

ومنها يفتخر .

إنّى لَطلاَّب الترّات مُطلَّبٌ ... وبكُل أَسباب المنية أُشرف
باقٍ على الحِدْثان غيرُ مكذَّبٍ ... لا كاسفٌ بالِى ولا مُتأسِّف
إنْ نِلْتُ لم أَفْرح بشىء نِلتُه ... وإذا سُبقتُ به فلا أتلهَّف
إنى لأَحمى فى المَضيق فَوارسى ... وأَكُرُّ خَلْف المُستضاف[3] وأَعْطف
وأَشُدّ إذ يَنْبو[4] الجَبان وأَصْطَلى ... حَرَّ الأَسنَّة والأَسنّة تَرْعُف
فلئن أصابتْنى الحرُوب فإننّى ... أُدعى إذا مُنع الرِّدافُ فأُرْدِف
ولرُبّما يَرْوَى بكفّى لَهْذَمٌ ... ماضٍ ومُطَّرِد الكُعوب[5] مُثقَّف
وأُغير غارات وأَشهد مَشهداً ... قلبُ الجَبان به يَطير ويَرجُف
وأَرى مَغانمَ لو أَشاء حَويتُها ... فيصُونُنى[6] عنها غِنًى وتعفُّف

مدح النعمان ابن بشير لوساطته فى عطاء

قيل :

إن أعشى همدان خَرج إلى الشام فى خلافة مروان بن الحكم ، فلم يَنل فيها

(١) تقذف : تبعد .
(٢) الأشاجع : أصول الأصابع . وأعجف : قليل اللحم .
(٣) المستضاف : من يفزع إليه غيره ويلتجىء إليه . يريد الشجاع الحامى لما وراءه .
(٤) فى بعض أصول الأغانى : « يكبو » .
(٥) اللهذم : السيف . ومطرد الكعوب : الرمح المتتابعة كعوبه . والمثقف : المسوى .
(٦) فى الأغانى : « فيصدنى » .

حظًّا ، فجاء إلى النُّعمانِ بن بَشير الأَنصارى ، وهو عامل على حمص ، فكلم له النُّعمان اليمانيةَ وقال لهم : هذا شاعر اليمن ولسانُها ، واستماحهم له . فقالوا : نعم ، يُعطيه كُل رجل منّا دينارَيْن من عطائه . فقال: لا ، بل أُعطُوه ديناراً ديناراً واجعلوا ذلك مُعجَّلا . فقالوا: أعطه إيّاه من بيت المال واُحتَسبها على كُل منّا من عطائه . ففعل النُّعمان . فكانوا عشرين ألفَ رجل ، فأَعطاه عشرين ألفَ دينار ، وأرتجعها منهم عند العَطاء . فقال الأعشى يمدح النُّعمان بن بَشير :

فلم أَرَ للحاجات عنـــد ٱلتماسها ... كنُعمانَ نُعمانِ النَّـــدَى ابن بَشِيرِ
إذا قال أوفى ما يَقُولُ ولم يكُن ... كَمُـدْلٍ إلى الأقوام حبـــلَ غُرور
متى أكفُرِ النُّعمانَ لم أُلفَ شاكراً ... وما خيرُ من لا يقتـــدِى بشَكُور
فلولا أخو الأَنصـــار كنتُ كنازلٍ ... ثَوى ما ثَوى لم يَنقلب[1] بنقـــير

طلق زوجه وتزوج أخرى

وذُكر أنَّ الأَعشى كانت عنده اُمرأة من قومه ، يقال لها : أُم الجلال ، فطالت مُدتها عنده فأَبغضها . ثم خَطب اُمرأةً يقال لها : جَزلة ، فقالت : لا ، حتّى تُطلِّق أُم الجَلال . فطلَّقها وقال فى ذلك :

تَقـــادم وُدّكِ أُمَّ الجَـــلالِ ... فطاشتْ نِبالُكِ عنـــد النِّضالِ
وطال لزُومك لِى حِقْبَـــةً ... فرثَّتْ قُوَى الحَبْل عند[2] الوِصال

ومنها :

وكان الفُؤاد بها مُعجَبًـــا ... فقد أَصبح اليومَ عن ذاك سالِى
فبعضَ العِتـــاب فلا تَهْلِكِى ... فَلا لكِ فى ذاكَ خـــيرٌ ولا لى
ولمّـا بدا لىَ منهـــا البَـــذا ... ء صبّحتُها بثـــلاثٍ عِجَـــال

(١) النقير : النكتة فى ظهر النواة . يضرب بها المثل للقليل .
(٢) فى الأغانى : « بعد » .

ثلاثٍ [1] خرجْنَ جميعاً بهـــا فخلَّيتهـــا ذاتَ بيتٍ ومال
إلى أهلهـــا غـــيرَ مخلوعةٍ وما مَسَّها عندنا من نَـكال
فِـنِّى حَنِينَـــك واسْـتيقِنى بأنّا أُطَرَّحنـــاك ذاتَ الشمال
وأنْ لا رُجوع فلا تُـكْذَبِـ ـنَ ما حَنَّتِ النِّيبُ إثْرَ الفِصال
ولا تَحسبى أنّنى [2] قـــد نَدِمْـ ـتُ كَلَّا وخَالِقنا ذِى الجلال

فقالت له أُم الجلال : بئس والله بعلُ الحُرة وقرينُ الزوجة المُسلمة أنت ! أَعَدَدْتَ طُول الحُرمة والصُّحبة ذنباً تسُبنى به وتَهجونى له ! ثم دعت عليه أن يُبغِّضه الله إلى زَوجته التى اختارها ، وفارقتْه . فلما انتقلتْ « جَزلة » إليه ودخل بها لم يَحْظ عندها ، وتَركتْه وتنكَّرت له ، واشتدّ شغفُه بها ، وقال فيها قصيدتَه التى منها الأبياتُ التى فيها الغناء ، وافتتح بها أبو الفرج أخباره ، وأوّلُها :

حَيِّيا جَزْلةَ منِّى بالسَّـــلامِ دُرَّة البَحر ومِصباحَ الظَّلامِ
لا تَصُـــدِّى بعـــد وُدٍّ ثابتٍ واسمَعى يا أُم عِيسى من كَلامى
إن تَـــدُومى لى فوصلى دائمٌ أو تَهُمِّى لى بهَجْـــرٍ وانْصرام
أو تكونى مثـــلَ بَرْقٍ خُلَّب خادعٍ يَلمع فى عُرض الغَمام
أو كتَخْييـــلِ سَرابٍ مُعْرضٍ بفَلاة أو طُروقٍ فى المَنـــام
فاعلمى إن كنت لمّـا تَعلمى ومتى ما تَفْعلى ذاك تُلامى
بعـــد ما كان الذى كان فلا تُتْبعى الإحســـانَ إلّا بالتَّمام
واذكرى الوعـــدَ الذى واعدتنى ليـــلةَ النِّصف من الشَّهر الحَرام
لا تناسَىْ كُلَّ ما أعطيتنى من عُهود ومَواثيق عِظام

(١) فى الأغانى : « ثلاثاً » .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « ولا تحسبينى بأنى ندمت » .

راجعى الوصـــلَ ورُدِّى نظرةً ... لا تَـلَجِّى فى طِمَـــاحٍ وأَثام
وإذا أنكرتِ منِّى شـــيمةً ... فلقـــد يُنْـكَر ما ليس بذَام
فاذكريهـا لى أَزُلْ عنهـا ولا ... تُسْفِحى عينيك بالدَّمع السِّجام
وأَرى حبلَك رثًّا خَلَقًـــا ... وحبـــالى جُـدُداً غيرَ[1] رِمَام
ورأت جِسمى عليه[2] كِـبْرةٌ ... وصُروفَ الدَّهر قد أَبلت عِظامى
وهى بيضـــاء على مَنْـكِبهـــا ... قَطَطٌ جَعْـدٌ ومَيَّال[3] سُحامِى
وإذا تَضْحك تُبـــدى حَبباً ... كرُضَاب المِسْك فى الرَّاح المُدام
كَمَلَتْ ما بين قَرْنٍ فإلى ... مَوضع الخَلخال من تحت[4] الخِدام
وأراها اليومَ لى قد أَحـــدثتْ ... خُلُقاً ليس على العهـد القُـدام

أملق فـــدح ابن عتاب فأجازه

وقيل :

أَملق أعشى هَمدان ، فأَتى خالدَ بن عتَّاب بن وَرقاء ، وأَنشده :

رأيتُ ثنـاء النـاس بالغَيْب[5] طيباً ... عليكَ وقالوا ماجـــدٌ وابْنُ ماجدِ
بَنِي الحـارثِ السَّامين للمَجـد إنكم ... بَنيتُم بنـــاءً ذِكرُه غـــيرُ بائد
هَنيئاً لِمـــا أعطاكمُ اللهُ واعْلموا ... بأَنى سأُطرى خالداً فى القَصـــائد
فإن يَـكُ عَتَّـابٌ مَضى لسبيـله ... فما مات مَن أَبقى[6] له مثـــلَ خالد

فأَمر له بخمسة آلاف درهم .

---

(١) رمام : بالية .
(٢) فى الأغانى : « علاء » .
(٣) القطط : القصير . والسحامى : الأسود ، على النسبة ، وخفف للشعر . وفى الأغانى : « سخام » بالخاء المعجمة . وهو اللين الحسن من الشعر . وعلى هذه الرواية فى البيت إقواء .
(٤) الخدام : الخلخال . والرواية فى الأغانى : « الخلخال منها والخدام » .
(٥) فى الأغانى : « بالقول » مكان « بالغيب » .
(٦) فى الأغانى : « يبق » .

أنشد سابق لعمر ابن عبد العزيز من شعره فأبكاه

وقيل :

إنّ عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قال يوماً لسابق البَربرىّ، وقد دخل عليه : أَنشدنى يا سابق شيئًا من شعرك تذكّرنى به . قال : أوَ خيراً من شعرى ؟ قال : هات . فأَنشده للأَعشى الهَمدانى :

وبينما المرء يُمسى ناعمًا جَـذِلاً ... فى أهله مُعجَباً بالعيش[1] ذا أَنَقِ

غِرًّا أُتيح له من حَيْنـه عَرَضٌ ... فما تلبَّث حتى مات كالصَّعِق

ثُمَّتَ أَضحى ضُحًى من غِبِّ ثالثةٍ ... مُقنَّعًا غيرَ ذى رُوح ولا رَمَق

فما تزَوَّدَ ممَّا كان يَجْمعُه ... إلا حَنُوطًا وماواراه من[2] خِرَق

وغيرَ نَفْحَـةِ أعواد تُشَبُّ له ... وقَلَّ ذلك من زادٍ لمُنْطلق

فبكى عُمر رحمه الله تعالى حتى اخضَلَّت لحيتُه .

مقتله

ذكر مقتل الأعشى

قيل : بعث الحجّاج بن يوسف الثَّقفى ، وهو يومئذ أميرُ العراق ، لعبد الملك ابن مَروان . عبدَ الرَّحمن بن محمد بن الأَشعث بن قَيس الكِنْدىّ ، فى عسكر كَثيف لقتال التُّرك ، وفى ذلك الجيش الأعشى وخَلْق من القُرّاء والوجُوه وأَهل النَّباهة . وكانت وطأة الحجّاج قد ثَقُلت على الناس. فأَجمعوا على خَلع الحجّاج. فخَلعوه و بايعوا عبدَ الرحمن بن الأشعث . فأَقبل بالناس يُريد العراق للاستيلاء عليه وطَرْد الحجّاج منه . وجعل الأعشى يقول الشِّعر فى ابن الأَشعث يَمدحه ويُحرِّض أَهلَ الكُوفةَ بأشعاره على القتال . فكان ممّا قاله فى ذلك :

(١) الأنق : الفرح والسرور .

(٢) رواية الأصل : « إلا حنوطاً غداة البين أو خرق » . والحنوط : طيب يعد للموتى .

يأبَى الإله وعـــزةُ ابن مُحمّدٍ وجدودُ مَلْك قبـل آل ثَمُودِ
أن تأنسوا بمُذمّمين عُروقُهم فى الناس إن نُسبوا عروقُ عَبيد
كم من أبٍ لك كان يعقِد تاجَه بجَبين أبلجَ مِقْولٍ صِنْديد
و إذا سـألت المَجد أين محلُّه فالمجـدُ بين محمَّد وسَـــعيد
بين الأشجِّ و بين قيسٍ باذخٌ بَخْ بَخْ لوالده وللمَـوْلود
ما قَصَّرت بك أنْ تنال مَدى العُلاَ أخلاقُ مكرُمة و إرثُ جُدود
قَرْمٌ إذا سـامَى القُرومَ ترَى له أعراقَ مَجْدٍ طارفٍ وتَليـد
و إذا دعا لِعظيمةٍ حُشـدت له هَمْدان تَحت لوائه المَعْقـود
يمشُون فى حَلق الحديد كأنّهـم أُسْد الأَباء[1] سَمِعْن زَأْر أُسود
و إذا دعوتَ بآل كِنْدة أجْفـلوا بكُهول صِدْقٍ سـيِّدٍ ومَسُود
وشبابِ مأسَـدة كأنّ سُيوفَهم فى كُل مَلْحمـة بُروقُ رُعود
ما إن ترى قيساً يُقارب قَيسَكم فى المَكْرُمات ولا ترَى كسعيد

وجاءت الحجاجَ الأمدادُ من الشأم ، وكانت بينه و بين ابن الأَشعث الوَقْعة العظيمة المَعروفة بوقعة الجماجم ، وغيرها . وكان الأَعشى شـديد التَّحريض على الحجّاج فى تلك الحُروب . فذُكر أنّ أصحاب ابن الأشعث جالوا جَولةً ثم عادوا ، فنزل الأعشى عن سَرجه ونَزعه عن فَرسه و نَزع دِرْعه فَوضعها فوق السَّرج ثم جلس على الدِّرع فأَحـدث فى السَّرج ، والنـاس يرَوْنه ، ثم قال لهم : لعلـكم أنكرتُم ما صنعتُ ؟ قالوا : أَوَليس هذا بمُنـكر ؟ قال : كُلـكم قد سَلَح فى سَرْجه ودِرعه خوفاً وفرقاً ، ولـكنكم سَتَرْتُموه وأظهرتُه . فَحمِى القومُ وقاتلوا قتالاً شديداً

(١) الأباء : جمع أباءة ، وهى الأجمة .

يومَهم إلى الليل. وشاع فيهم الجِراحُ والقَتل . وانهزم أصحاب الحجّاج يومئذ . ثم عاودوهم من غدٍ وقد نكأتْهم الحربُ وجاءهم مَدد من الشّأم ، فباكروهم القِتال وهم مُستريحون، فانهزم ابن الأشعث أقبحَ هزيمة .

هو والحجاج ومقتله

قيل :

وأُتى الحجاجُ بالأعشى أسيراً ، فقال له الحجاج : الحمد لله الذى مكّن منك ، ألستَ القائل :

لمّا سَمَوْنا[1] للكَفُور الفتّانْ ... بالسيِّد الغِطْريف عبد الرحمنْ

سار بجَمْعٍ كالقَطَا مِن قَحْطان ... ومِن مَعَدٍّ قد أتى ابنُ عَدْنان

أمكن ربِّى من ثَقيف هَمْدان ... يوماً إلى اللَّيل يُسَلِّى ما كان

إنّ ثقيفاً منهم الكذّابان ... كذّابُها الماضِى وكذّاب ثان

أوَلست القائل :

يابن الأشجِّ قَريع[2] كِنْدة لا أُبالى فيك عَتْبا

أنت الرّئيسُ ابن الرّئيـ ... ـس وأنتَ أعْلَى الناسِ كَعْبا

نُبِّئْتُ حجّاجَ بن يو ... سفَ خَرَّ مِن زَلَق فتَبّا

فانهضْ هُدِيت لعلّه ... يَجْلو بك الرحمنُ كَرْبا

وابعث عَطِيّة فى[3] الجُنـ ... ـود يَكُبّهن عليه كَبّا

كلّا يا عدوَّ الله ، عبد الرحمن هو الذى خَرَّ من زَلَق فتَبّ ، وخار[4]

(١) فى بعض أصول الأغانى : « سفونا » . و سفا : خف وأسرع .

(٢) الأشج : الأشعث بن قيس الكندى ، جد عبد الرحمن بن محمد ، مخاطب الأعشى فى هذا الشعر . والقريع : السيد .

(٣) عطية ، هو ابن عمرو العنبرى . كان على مقدمة جيوش عبد الرحمن بن الأشعث ، وكان لا يلقى خيلا إلا ضربها .

(٤) خار : انكسر وضعف . ورواية الأغانى : « حار » .

وأُنكبّ ، وما لقى ما أحبّ . ورَفع بها صوتَه وأُر بدّ بها وجهه واهتز منكباه . فلم يَبْق فى المجلس أحدٌ إلّا هَمّته نفسُه وارتعدت فرائصُه . فقال له الأعشى : أنا القائل أيها الأمير :

أَبَى اللهُ إلّا أن يُتَمِّم نُورَه ... ويُطفىء نار الفاسقين فتَخْمُدَا
ويُنزل ذُلًّا بالعراق وأهله ... كما نَقضوا العهدَ الوثيق المُؤكَّدا
وما لَبِث الحجّاجُ أن سَلَّ سَيفَه ... علينا فولَّى جمعُنا مُتبدِّدا
وما زاحف الحجّاجُ إلّا رأيتَه ... حُساماً مُلَقًّى للحُروب مُعوَّدا
فكيف رأيتَ اللهَ فرّق جَمْعهم ... وفرّقهم عُرْضَ البِلاد وشَرَّدا
بما نَكثوا من بَيْعةٍ بعد بَيْعةٍ ... إذا ضَمِنوها اليوم خاسُوا بها غَدا
وما أحدثوا من بِدعةٍ وعَظيمةٍ ... من القَوْل لم تَصْعد إلى الله مَصْعدا
فضَار بنا[1] الحجّاجُ دون صُفوفنا ... كِفَاحاً ولم يَضْرب لذلك مَوعدا
بجُنْد أمير المُؤمنين وخَيْله ... وسُلطانُه أمسى مُعاناً مُؤيَّدا
لِيَهنىء أميرَ المُؤمنين ظُهورُه ... على أُمة كانوا بُغاةً وحُسَّدا
وَجدنا بنى مَرْوان خير أئمة ... وأعظمَ هذا الخَلق حِلْماً وسُؤدُدا
وخيرَ قُريش من قُريش أرومةً ... وأكرمَهم إلّا النبيّ محمّدا
إذا ما تدبَّرنا عواقب أمرِنا ... وجدنا أمير المُؤمنين المُسدَّدا
سيُغلب قومٌ غالبوا اللهَ[2] جهلةً ... وإنْ كايدوه كان أقوى وأكيَدا
كذاك يُضِلُّ اللهُ مَن كان قلبُه ... مَريضاً ومَن والى النِّفاق وألْحدا
وقد تركوا الأموال والأهلَ خلفهم ... وبِيضاً عليهنَّ الجَلاليبُ[3] خُرَّدا

(١) فى الأغانى : « فصادمنا » .
(٢) ويروى : « سيغلب قوماً غالبوا الله جهرة » .
(٣) الخرد : الخفرات من النساء . جمع نادر لخريدة .

يُنـــادينهم مُســـتعبراتٍ إليهمُ ويُذْرين دَمْعًـا فى الخُدود و إثْمـدا
فإلّا تَنـاوَلْهن منك[1] برَحمـــةٍ يكُنَّ سَـــبايا والبُعولةُ أَعْبُـدا
تَعَطَّف أمـــيرَ المُؤمنين عليهمُ فقـــد تَركوا أمرَ السَّفاهة والرَّدَى
لعلّهمُ أن يُحـدِثُوا العـــامَ توبةً وتَعرفَ نُصْحًـــا منهمُ وتَوَدُّدا

فقال من حَضر من أهل الشأم : قد أَحسن أيها الأمير ، فخَلِّ سبيلَه . فقال : أتظُنون أنه أَراد المَدح ؟ لا والله ! ولـكنّه قال هـذا أسفاً لغَلبتكم إيّاه ، وأراد أن يحُض أصحـابه . ثم أقبل عليه فقال : أَظننتَ يا عدوَّ الله أنك تَخدعنى بهـذا الشِّعر وتُفلت منِّى حتى تنجو ! ألستَ القائل ويلك :

بين الأَشجّ و بين قَيس باذخٌ بَخْ بَخْ لوالده وللمَولُودِ

والله لا تَنجح بعدها أبداً ! ألست القائل :

وأصـــابنى قومٌ وكنتُ أُصيبهم فاليومَ أَصـــبرُ للزَّمان وأَعرفُ

كذبتَ والله ! ما كنتَ صبوراً ولاعَرُوفاً! ثم قلتَ بعده:

و إذا تُصِبْك من الحوادث نكْبةٌ فاُصبر فكُل غَيَابة ستَـكشَّفُ

أما والله لتكونن نكبة لا تَنْـكشف غَيَابتُها أبداً . يا حَرسىّ، اُضربْ عُنقه . فضُربت عُنقه .

مصير ابن الأشعث

قلت :

وكان آخر أمر ابن الأَشعث أَنْ هَرب إلى ملك التُّرك فاُستجار به. فـكاتب الحجـاجُ ملكَ التُّرك فى تَسليمه إليـه و بَذل له بذلاً ، والتزم أنه لا يَغزوه مُدَّةً . فسلَّمه ملكُ التُّرك إلى مَن وَرد إليه من عند الحجّاج . فمضَوْا به إليه . فبات ليلةً

(١) فى الأصل : « فإلاتنالوهن منكم » .

على سَطح عالٍ فى بعض المَنازل ، وأُغتنم غفلةً ممن يحْرُسه ، ثم رَمى بنفسه من السَّطح ، فمات أنفةً وحميَّـةً لئلا يقَع فى يد الحجّـاج . وفى ذلك يقول أبو بكر ابن دُريد :

وابْنُ الأشجِّ القَيل[1] قاد نَفْسه إلى الرَّدى حِذارَ إشماتِ العِـدا

(١) القيل : الملك .

obeikandl.com

أخبار حمّاد الرّاوية

نسبه وولاؤه

هو حماد بن مَيسرة . وقيل : أبن سابور ، مولى بنى شَيبان .

علمه وصلة بنى أمية له عليه

وكان من أعلم الناس بأيّام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولُغاتها . وكانت مُلوك بنى أُمية تُقدِّمه وتُؤثره وتستزيره . ويَقدم عليهم ويُنادمهم ، ويسألونه عن أيام العرب وعُلومها ويجزلون صِلته .

بينه وبين الوليد ابن يزيد وقد سأله عن لقبه

وذُكر أن الوليد بن يزيد قال له : بما استحققْتَ هذا اللَّقب ، فقيل لك : حماد الرَّاوية ؟ قال : بأنى أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعتَ به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن تعرف بأنك لم تعرفهم ولم تسمع بهم ، ولا أُنْشِد شعراً لقديم ولا مُحدث إلّا ميزت القديم منه من المُحدث . فقال : إن هذ العِلْم وأبيك لكثير ! فكم مقدارُ ما تَحفظ من الشِّعر ؟ قال : كَثير ، ولكنى أُنشدك على أىّ حَرف من حُروف المُعجم مائة قَصيدة كبيرة سِوى المُقطَّعات من شعر الجاهلية ، دون شعر الإسلام . قال : سأَمتحنك فى هذا الأَمر . وأمره بالإنشاد . فأَنشد حتى ضَجر الوليد ، ثم وكّل به من أُستحْلفه أن يَصْدُقه عنه ويستوفىَ عليه . فأَنشده ألفين وتِسعمائة قَصيدة للجاهليين . وأُخبر الوليد بذلك . فأَمر له بمائة ألف .

الحمادون الثلاثة

وقيل :

كان بالكوفة ثلاثةُ نَفَر يقال لهم : الحمَّادون — حمّاد عَجرد ، وحمّاد الراوية ، وحماد بن الزِّبْرقان — يتنادمون على الشَّراب ، ويتناشدون الأَشعار ، ويتعاشرون مُعاشرة جَميلة ، وكانوا كأنّهم نفسٌ واحدة ، وكانوا يُرْمَون بالزَّندقة جميعاً .

(١) وقبل أخبار حماد ساق أبو الفرج « أخبار أحمد النصبى » المغنى فى صفحات قليلة ، ولكن ابن واصل أضرب عن ذكرها .

وفوده إلى هشام بن عبد الملك

وحَكى حمّاد قال :

كان انقطاعى إلى يزيدَ بن عبد الملك ، وكان هشام يَجْفونى لذلك دون سائر أهله من بنى أُمية فى أيّام يزيد ، فلما مات يزيدُ وأفضت الخلافةُ إلى هشام جَفانى، ومكثت فى بَيتى سنة لا أخرج إلّا لمن أَثق به من إخوانى سرًّا ، فلمّا لم أسمع أحداً يذكُرنى سنةً أمِنْتُ وخرجتُ فصلَّيتُ الجُمعة ، ثم جلستُ عند باب الفِيل، فإذا شُرَطيّان قد وَقفا علىّ وقالا : يا حَماد،أَجِب الأمير يُوسفَ بن عُمر[1] . فقلتُ فى نفسى : مِن هذا كنتُ أحذر . ثم قلتُ للشرطيَّيْن : هل لكما أن تدعانى آتى أهلى فأُودّعهم وَداع مَن لا يرجع إليهم أبداً ، ثم أَصير إليه ؟ فقالا : ما إلى ذلك مِن سبيل . فأُستسلمتُ فى أيديهما وصِرت إلى يوسف بن عُمر ، وهو فى الإيوان الأحمر ، فردّ علىّ السلامَ ورَمى إلىّ كتاباً فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله هِشام أمير المُؤمنين إلى يوسف بن عُمر . أما بعد . فإذا قرأتَ كتابى هذا فابعثْ إلى حمّاد الرّاوية من يأتيك به غير مُروَّع ولا مُتَعْتَع ، وادفع إليه خمسمائة دينار وجملاً مَهْرِيًّا[2] يَسير عليه اثنتى عشرةَ ليلةً إلى دمشق .

قال : فأخذت الخمسمائة الدينار ، ونظرتُ فإذا جَمل مَرْحول ، فوضعتُ رِجلى فى الغَرْز[3] وسِرْتُ اثنتى عشرةَ ليلةً ، حتى وافيتُ بابَ هِشام ، فاستأذنتُ فأُذن لى ، فدخلتُ عليه فى دار قَوْراء[4] مَفْروشة بالرُّخام ، وبين كل رُخامتَيْن قضيبُ ذَهبٍ ، وحيطانُه كذلك ، وهشام جالسٌ على طِنْفِسَةٍ حمراء ، قد تَضمَّخ

(١) لعله خالد بن عبد الله القسرى ، لأنه عندما تولى هشام الخلافة سنة ١٠٥ هـ عزل عمر بن هبيرة عن ولاية العراق وولى مكانه خالد بن عبد الله القسرى ، فبقى على العراق حتى سنة ١٢٠ هـ . فعزله هشام وولى العراق يوسف بن عمر .

(٢) نسبة إلى : مهرة بن حيدان ، حى من قضاعة من عرب اليمن . تنسب إليهم نجائب الإبل .

(٣) الغرز : ركاب الرحل .

(٤) قوراء : واسعة .

بالمِسك والعَنبر ، و بين يديه مِسْك مَفْتوت فى أوانى الذَّهب، يُقلِّبه بيدَيه فتفوح روائحه، فسلّمتُ فَردَّ علىّ السلامَ ، واُستدنانى ، فدنوتُ حتى قبّلت رجلَه، و إذا جاريتان لم أَرَ مثلَهما، فى أُذُنَىْ كُلّ واحدةٍ منهما حَلْقتان من ذهب فيهما لُؤلُؤتان تتوقّدان . فقال : كيف أنت ياحمّاد ؟ وكيف حالُك ؟ فقلت : بخير يا أمير المُؤمنين . قال : أَتدرى فيم بعثتُ إليك ؟ قلت : لا . قال : بعثتُ إليك لبيتٍ خَطِر ببالى لم أَدْر مَن قاله ؟ قلت : وما هو ؟ فقال :

فدعَوْا بالصَّبُوح يوماً فجاءت قَينةٌ فى يَمينها إبريقُ

فقلت : هذا يقوله عَدِىّ بن زَيد فى قصيدة له . قال : فأنشدنيها . فأَنشدتُه :

بَكر العاذلون فى وَضَح الصُّبْـ ـح يقُولون لى أمَا تَستفيقُ
لستُ أَدرى إذ أكثروا العَذْل عندى أعدوٌّ يلُومنى أو صَديق
ويلُومون فيك يا بنة عبد اللّه والقلبُ عندكم[1] مَوهُوق
زانها حُسْنُها وفَرْعٌ عَمِيمٌ وأَثيثٌ صَلْتُ الجَبين[2] أَنيق
وثَنايا مُفَلَّجات عِذاب لا قِصارٌ تُرى ولا هُنَّ[3] رُوق
فدعَوْا بالصَّبُوح يوماً فجاءت قَينةٌ فى يَمينها إبْريق
قدَّمتْه على عُقار كعَين الدِّ يك صَفَّى سُلافَها[4] الرَّاووق
ثم كان المِزاجُ ماءَ سماء غيرَ ما آجنٍ ولا مَطْروق

فطرب وقال : أحسنت والله يا حمّاد ! يا جارية اُسقيه . فسقتْنى شَرْبةً ذهبت بثُلث عقلى، وقال:أَعد . فأَعدتُ . فاُستخفَّه الطَّرب حتى نَزل عن فَرشه . ثم قال : للجارية الأخرى:اُسقيه شَربة.فسقَتْنى، فذهبت بثُلث عقلى.فقلتُ: إن سُقيت الثالثة

(١) موهوق : مشدود بالوهق ، وهو الحبل المغار .
(٢) الفرع : الشعر . والأثيث : الكثير . والصلت : الواضح . (٣) روق : طوال .
(٤) الراووق : المصفاة .

أُفتضحتُ . فقال : سَل حوائجك . فقلت : كائنةً ما كانت ؟ قال : نعم . قلت : إحدى الجاريتَيْن . قال : هما جميعاً لك بما عليهما وما لهما . ثم قال للأُولى : أُسقيه . فسقتْنى شَربة سقطتُ معها ، فلم أعقل . فلما أصبحتُ إذا بالجاريتين عند رأسى ، وإذا عشرةٌ من الخَدم مع كُل واحدٍ منهم بَدْرة . فقال لى أحدهم : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلامَ ويقول لك : خُذ هـذه فانتفع بها فى سَفرك . فأخذتُها والجاريتَيْن وأنصرفتُ .

ثم ذكر أبو الفرج روايةً أُخرى لم يذكُر فيها أنه سقاه . ورجَّحها أبو الفرج ، لأن هشام بن عبد الملك لم يثبُت عنه أنه كان يشرب مُسكراً ولا يَسقيه بحَضرته ، وكان يَعيب السُّكر ويُعاقب عليه .

توسط مطيع له عند جعفر وسوء حظه

وذُكر أن جَعفر بن أبى جعفر المَنصور ، المعروف بابن الكُرْديّة ، كان يَستخفّ مُطيع بن إياس ويُحبه ، وكان منقطعاً إليه ، وله معه منزلةٌ حَسنة . فذَكر مُطيع حماداً الراوية لجعفر ، وكان صديقَه ، وكان حمَّاد مُطَّرَحاً فى أيّام بنى العبّاس ، وإنما كانت سعادتُه فى أيام بنى أُمية . فقال له جَعفر : أُئتنا به لنَراه . فأَتى مُطيعٌ حمَّاداً فأَخبره بذلك ، وأَمره بالمَسير إليه معه . فقال له حماد : دَعنى ، فإن دولتى كانت مع بنى أُمية ، ومالى عند هؤلاء خَير . فأَبى مُطيع إلّا الذَّهابَ إليه . فاستعار حمّاد سواداً وسيفاً ثم أتاه . فمَضَى به مُطيع إلى جَعفر ، فلما دَخل عليه سلَّم سلاماً حَسناً وأثنى عليه وذَكر فَضله . فردّ عليه وأمره بالجُلوس ، فجلس . فقال له جعفر : أَنشدنى . فقال : لمن أيها الأمير ؟ لشاعر بعينه أو لمن حَضر ؟ قال : لجرير . قال : فَسلخ الله شعر جَرير من قَلبى إلا قولَه :

بانَ الخَليطُ برامتَيْن (١) فودَّعوا ... أَوَ كُلَّما اعْتزموا لبَيْنٍ تَجْزَعُ

---

(١) رامتان : رامة ، منزل فى طريق البصرة إلى مكة . يأتى فى الشعر مثنى ومجموعاً .

فاندفعتُ أُنشده إيّاها حتى أُنتهيتُ إلى قوله :

وتقول بَوزَعُ قد دَبَبتَ على العصا هلّا هَزِئْتِ بغيرنا يا بَوْزَعُ

قال حماد : فقال لى جعفر : أعد . فأعدتُه . فقال لى : بَوزع ، أى شىء هو ؟ فقلت : أُمرأة أسمها بوزع . فقال : هو برىء من الله ورسوله ، ونفىٌ من العبّاس أبن عبد المطلب إن كان بوزع إلّا غُولاً ! تركْتنى والله يا هذا لا أنام الليلةَ من فَزع بَوزع ! يا غِلمان ، قفاه ! فصُفِعْتُ والله حتى لم أدر أين أنا . ثم قال جُرُّوا برجله . فجرُّوا برجلى حتى خَرجتُ من بين يديه مَسْحوباً ؛ فتخرّق السَّواد ، وأنكسر جفنُ السَّيف ، ولقيتُ شرًّا عظيما مما جرى علىّ . وكان أغلظَ من ذلك كلِّه وأشدِّه بلاءً إغرامى ثمنَ السَّواد وجفنِ السَّيف . فلما أنصرفتُ أتانى مُطيع يتوجَّع لى . فقلتُ له : ألم أُخبرك أنّى لا أُصيب منهم خيراً ، وأن حظّى مَضى مع بنى أُمية .

طلب من بعض الرؤساء حاجة فقضاها له

وقيل :

كتب حمّاد إلى بعض أشراف الرُّؤساء :

إنّ لى حاجةً فرأيك فيها لك نفسى فِدًى من الأَوْصابِ
وهى ليستْ مما يُبلِّغها غيْـ ـرى ولا يَستطيعها فى كِتاب
غيرَ أنى أقولُها حين ألقا ك رُوَيْدًا أُسِرُّها فى حِجاب

فكتب إليه الرَّجلُ : أكتُب بحاجتك ولا تَشْهرنى بشعرك . فكتب إليه حمّاد :

إنّنى عاشقٌ لُجُبَّتك الدَّكْـ ـناء عِشْقاً قد حال دون الشَّرابِ
فاكسُنيها فدتْك نفسى وأهلى أَتباهى بها على الأَصحاب
ولك اللهُ والأَمانةُ أن أجـ ـعلَها عُمرَها أميرَ ثيابى

فبعث إليه بها .

بدء حياته

وذُكر أنّ حمّاداً كان فى أوّل أمره يتشطّر و يَصحب الصَّعاليك واللُّصوص ، فنَقب ليلةً على رجل وأخذ مالَه ، فكان فيه جُزء من شعر الأنصار ، فقرأه حمّاد واُستحلاه وتحفَّظه ، ثم طلب الأَدب والشِّعر وأيّام النـاس ولغاتِ العرب بعد ذلك ، وترك ما كان عليه ، فبلَغ فى العِلم ما بلغ .

رأى المفضل فيه

وذُكر أن المُفضَّل الضَّبى كان يقول :

قد سُلِّط على الشعر من حمّاد ما أَفسده فلا يَصلح أبداً ! فقيـل له : وكيف ذلك ؟ أيُخطىء فى روايته أو يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العِلم يردُّون مَن أخطأ إلى الصواب ، لا ، ولـكنّه رجلٌ عالم بلُغات العرب وأشعارها ، ومَذاهب الشعراء ومَعـانيهم ، فلا يزال يقول الشِّعر يُشبه به مذهَب رجلٍ ، و يُدخله فى شـعره ، و يُحْمَل عنه ذلك فى الآفاق ، فيختلط بأشعار القـدماء ، ولا يَتميَّز الصَّحيح منها إلّا عند عالم ناقد ، وأين ذاك !

رأى المهدى فيه وفى المفضل

وحكى بعضهم قال :

كُنَّا فى دار أمير المُؤمنين المَهـدىّ بعيساباذ[1] ، وقد اُجتمع فيهـا عدَّةٌ من الرُّواة والعُلمـاء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولُغاتها ، إذ خَرج بعض أصحاب المهـدىّ ، فدَعا بالمُفضَّل الضَّبى الرَّاوية ، فَدخل . فمـكث مليًّا . ثم خرج ذلك الرجلُ بعينه فَدعا بحمّاد الرَّاوية . فدخل . فمـكث مليًّا . ثم خَرج إلينا ومعه حمَّاد والمُفضَّل جميعاً ، وقد بان فى وَجه حمَّاد الاُنكسار ، وفى وجه المُفضَّل النشـاطُ . ثم خَرج حُسين الخادم بعدهما ، فقال : يا معشرَ من حَضر من أهل العِلم ، إن أمير المُؤمنين يُعلمـكم أنه قد وَصل حماداً الشـاعرَ بعشرين ألف درهم ، لجودة

(١) كانت شرقى بغداد .

شعره ، وأبطل روايتـه لزيادته فى أشعار العرب ما ليس فيهـا ، ووَصل المُفضَّل بخَمسين ألفاً لصِدْقه وصحَّـة روايته ، فمن أراد أن يَسمع شعراً جيداً مُحدثاً فَلْيسمع من حمَّاد ، ومن أَراد روا ية صحيحة فَلْيأْخذها من المُفضَّل .

فسألنا عن السَّبب فى ذلك ، فأُخبرنا أن المَهـدىَّ قال للمُفضل ، لمّـا دعا به وحدَه : إنى رأيت زُهير بن أبى سُلْمى قد اُفتتح قصيـدته بأن قال :

دَع ذا وعَـدِّ القولَ فى هَرِم خَير الـكُهُول وسَيِّد الحَضْرِ

ولم يتقدَّم قولٌ قبـل ذلك ، فما الذى أمر نفسَه بتركه ؟ فقال له المُفضَّل : ما سمعتُ فى هـذا يا أمير المؤمنين شيئاً ، إلا أنى توهّمتُـه يُفكر فى قول ليقوله ، أَو يُروِّى فى أن يقول شعراً ، فعدل عنه إلى مَدح هَرِم ، فقال : دَع ذا . أو كان مفكِّراً فى شىء من شأنه فتركه ، وقال : دع ذا ، أى دع ما أنت فيه من الفِـكر وعَدِّ القولَ فى هرم . فأمسك المهدىُّ عنه . ثم دعا بحمّاد فسأله عن مثـل ما سأل عنه المُفضل . فقال : ليس هكذا قال زُهير يا أمير المُؤمنين . قال : فـكيف قال ؟ فأنشده :

لمن الديار بقُنَّـــة الحَجْر أَقْوَيْنَ من حِجَجٍ ومن[1] دَهْرِ
قَفْر بمُنْدَفع النَّحـائث من ضَفْوَى بذات الضَّال[2] والسِّدْر
دَع ذا وعَـــدِّ القولَ فى هَرِم خَيرِ الـكُهول وسَـيِّد الحَضْر

فأطرق المهدىُّ ساعةً ، ثم أقبل على حماد فقال له : قد بلغ أميرَ المُؤمنين عنك خبرٌ لا بُدَّ من استحلافك عليـه . ثم اُستحلفه بأيمان البَيْعة وكُلِّ أيمان مُحْرِجة

(١) القنة : أعلى الجبل ، وما أشرف من الأرض . والحجر : موضع . ورواية الأغانى : « مذ حجج ومذدهر » .

(٢) النحائث : آبار بعينها . وضفوى : دون المدينة . والضال : السدر البرى ، فإن نبت على شطوط الأنهار ، فهو عبرى . وهو يريد به الأول ، فعطف عليه للمغايرة . والرواية فى الأغانى : « ضفوى أولات » .

لَيَصْدُقَنَّه عن كُل ما يسأله عنه ، فحلف له . فلما توثَّق منه قال : أصدُقنى عن حال هذه الأبيات ومَن أضافها إلى زُهير ؟ فأقرّ له حينئذ أنه قائلُها . فأمر فيه وفى المُفضَّل بما أمر به من شُهرة أمرها وكَشْفه .

الشعر الذى فيه الغناء

والشعرُ الذى فيه الغناء ، وافتتح به أبو الفرج أخبارَ حماد ، هو :

تَنكَّر من سُعْدَى وأَقْفرَ من هِنْدِ ... مُقامُهما بين الرَّغامَيْن[1] فالْفَرْدِ
مَحلٌّ لسُعْدى طالما سكنتْ به ... فأَوْحش ممَّن كان يسكُنه بَعدى

* * *

الصوت الذى فيه غناء عبادل

قلت :

ثم أَتبع أبو الفرج أخبار حمّاد الراوية بأخبار عَبادل المُغنى ، ولم أجد فيها ما أختاره . ثم أتبع ذلك بذكر صوت فيه الغناء ، وهو :

ليست نَعمْ منك للعافين[2] مُسْجَلةً ... من التخلُّق لكنْ شيمةٌ خُلُقُ
يكادُ بابُك من عِلْمٍ بصاحبه ... من دُون بوّابه للناس[3] يَندلقُ

وذُكر أن البيت الأول من هذين البيتين لطُريح الثَّقفى من قَصيدة يمدح بها الوليدَ بن يزيد ، والثانى لإبراهيم بن هَرمة .

قصيدة طريح

فأما القصيدة التى لطريح فإنه يقول فى تَشبيبها :

تقول والعِيسُ قد شُدَّت[4] بأرْحُلنا ... أَلْحَقَّ أنّك منّا اليومَ مُنطلِقُ
قلتُ نعم فاكظِمى قالت وما جَلَدى ... ولا أظُن اجتماعاً حين نَفْترق
فقلت إنْ أَحْىَ لا أُطْوِلْ بِعادَكمُ ... وكيف والقلبُ رهنٌ عندكم[5] غَلَق
فارقتُها لا فؤادى من تذكُّرها ... سالِى الهُمومِ ولا حَبْلى لها خَلَق

(١) الرغام : رملة من نواحى اليمامة . وثناه الشاعر للضرورة . والفرد : موضع .
(٢) مسجلة : مبذولة أو مرسلة .
(٣) يندلق : ينفتح فى خفة وشدة .
(٤) فى رواية : « بأرحلها » .
(٥) غلق : أى لا فكاك له .

فاضتْ على إثرهم عيناكَ[1] أدْمُعها ... كما تَتابع يجرى اللُّؤلؤ النَّسَق
فاُسْتَبْق عينَك لا يُودى البُكاء بها ... واُكفُفْ بوادرَ من عَيْنيك[2] تَسْتبق
ليس الشُّؤون و إن جادت بباقيةٍ ... ولا الجُفونُ على هذا ولا الحَدَق

يقول فى المديح :

وما نَعَمْ منك للعافين مُسْجَلةٌ ... من التخلُّق لكنْ شيمةٌ خُلُقُ
ساهمتَ فيها وفى «لا» فاُختصصتَ بها ... وطار قومٌ بلا والذَّمِّ فاُنطلقوا
قومٌ همُ شَرَف الدُّنيا وسُؤْدَدُها ... صَفْوٌ على الناس لم يُخْلَط بهم رَنَق
إن حاربُوا وَضَعوا أو سَالموا رَفَعوا ... أو عاقدوا أحْكموا[3] أو حدَّثوا صَدقوا

* * *

[رجع إلى أخبار ابن هرمة] .

ابن هرمة والعباس ابن الوليد

وأما البيت الثانى المَنسوب إلى ابن هَرمة ، فذكر أبو الفَرج أن العبّاس ابن الوليد بن عَبد الملك بن مَروان كان بَخيلاً لا يُحبُّ أن يُعطى أحداً شيئاً ، فقال : ما للشُّعراء تمدح أهل بيتى أجمع ولا تَمدحنى ! فبلغ ذلك ابنَ هرمة ، وكان قد مَدحه فلم يُثبه ، فقال يُعَرِّض به ويَمدح عبدَ الواحد بن سُليمان بن عبد الملك ابن مَروان :

ومُعْجَب بمديح الشِّعر يَمنعه ... من المديح ثوابُ الشِّعر[4] والشَّفَقُ
يا آبِىَ المَدْح من قولٍ يُحبِّره ... ذو نِيقةٍ فى حَواشى شعره[5] أنَق
إنَّك والمدحَ كالعَذْراء يُعجبها ... حُسْن الرِّجال ويَثنى قَلْبها الفَرَق

(١) فى الأغانى : « دمعها » .
(٢) فى الأغانى : « بوادر دمع منك » .
(٣) فى الأغانى : « ضمنوا » .
(٤) فى الأغانى : « المدح » .
(٥) يحبره : يجوده ويحسنه . والنيقة : التجود فى الأمر والمبالغة فيه . والأنق : الروعة والحسن .

لكنْ بمَدْين من مُفْضَى (١) سُوَيْمرة ... من لا يُذَمُّ ولا يُشْنَا له خُلُق
أهلُ المدائح تأتيه فتَمْدحه ... والمادحُون إذا قالوا له صَدَقوا

يقول فيها :

يكاد بابُك من جُودٍ ومن كَرم ... من دُون بوّابه للناس يَنْدَلق

حَكى ابنُ هرمة قال :

ابن هرمة وعبد الواحد ابن سليمان

كان أولُ من رفعنى فى الشعر عبدُ الواحد بن سُليمان بن عبد الملك ، فأخذ علىّ ألّا أمدح غيرَه ، وكان والياً على المدينة ، فكان لا يَدع برّى وصِلتى والقيام بمَؤونتى . فلم يَنْشَب أن عُزِل ووُلِّىَ غيره مكانَه . وكان الوالى من بنى الحارث ابن كَعب . فدَعَتْنى نَفْسى إلى مَدْحه طمعاً أن يَهب لى ، كما كان عبدُ الواحد يهب لى ، فمدحتُه ، فلم يَصنع بى ما ظننتُ . ثم قَدم عبدُ الواحد المدينةَ فأُخبر أنى مدحتُ الذى عُزل به . فأمر بى فحُجبت عنه ، ورُمت الدُّخول عليه ، فمُنعتُ . فلم أَدَعْ بالمدينة وجهاً ولا رجلاً له نَباهة وقَدْر من قُريش إلّا سألته أن يشفع لى فى أن يُعيدَنى إلى منزلتى ، فيأبى ذلك ولا يَفعله . فلما أعوزتْنى الحِيلُ أتيتُ عبدَ الله بن الحَسَن بن الحسَن بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فقلتُ : يابن رسول الله ، إن هذا الرجل قد أكرمنى وأخذ علىّ ألّا أمدح أحداً غيرَه ، فأعطيتُه بذلك عهداً ، ثم دعانى الشَّره والنَّكَدُ إلى أن مدحتُ الوالى بعده . وقَصصتُ عليه قصّتى وسألته أن يَشفع لى . فرَكِب معى . فأخبرنى الواقفُ على رأس عبد الواحد أنّ عبد الله لمّا دخل ، قام عبدُ الواحد فعانَقه وأجلسه إلى جَنْبه ثم قال : أحاجةٌ غدت بك أصلحك الله ؟ قال : نعم . قال : كُل حاجة مَقْضية إلّا ابنَ هرمة . قال : إن رأيت ألّا تَستثنى فى حاجتى فافعل . قال : قد فعلتُ .

(١) مدين : تجاه تبوك بين المدينة والشام . وسويمرة : فى نواحى المدينة .

قال : فحاجتى أبنُ هرمة . قال : قد رَضِيتُ عنه وأعدته إلى منزلته . قال : فتأذن له أن يُنشدك ؟ قال : فتُعْفينى من هذه ؟ قال : أسألك أن تفعل . قال ائتوا به . فدخلتُ عليه وأنشدتُه قولى فيه :

وجدنا غالباً كانت جناحاً وكان أبوك قادمةَ الجَناحِ

فغضب عبدُ الله بن الحَسن حتى انقطع رِزُّه[1] ، ثم وثب مُغضَباً . وأوجزت فى الإنشاد ، ثم لحقتُه فقلت : جزاك الله خيراً يا بن رسول الله ! قال : لكن لا جزاك خيراً ياماصَّ بَظْر أُمه ! تقول لأبن مَرْوان :

* وكان أبوك قادمة الجَناح *

بحَضرتى ، وأنا أبنُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأبن على بن أبى طالب ؟ فقلت : جَعلنى الله فِداك ! إنى قلتُ قولاً أخدعه به طلباً للدُّنيا ، ووالله ما قِسْتُ بكم أحداً قَطُّ ، ألم تَسمعنى قد قلتُ :

* و بعض القول يذهب بالرِّياح *

فضَحك عبدُ الله وقال : قاتلك الله ! ما أظرفك !

قال أبو الفرج :

وهذه القصيدة الحائية ، التى مَدح بها أبنُ هرمة عبدَ الواحد بن سُليمان ، من فاخر الشِّعر ونادر الكلام ومن جيِّد شعر أبن هَرمة خاصّةً ، وأولُها :

صَرَمْتَ حَبائلاً من حُبِّ سَلْمى لهنْدٍ ما عَمَدتَ لمُسْتَراحِ
فإنك إنْ تُقِم لم تَلْقَ هِنْداً و إن تَرْحل فقلبُك غيرُ صاحى
يَظَلُّ نهارَه يَهذِى بهندٍ و يأرَق ليلَه حتّى الصّباح
أعبدَ الواحد المَحْمُودَ إنّى أغَضُّ حِذار سُخطك بالقَراح

(١) الرز : الصوت .

فشُلَّت رَاحتَـاى ومال مُهرى ... وألْقـانى بمُشْتَجر الرِّماح
وأَقعـدنى الزَّمانُ فبِتُّ صِـفْراً ... من المال المُعزَّب [1] والمُراح
إذا فَخَّمْتُ غيرَك فى ثَنَـائى ... ونُصْحى فى المَغيبـة وامْتـداحى
كأنّ قصـائدى لك فاصْطنعنى ... كرائم قد عُضِلْنَ [2] عن النِّكاح
فإنـ أَكُ قد هَفَوْتُ إلى أمير ... فعَنْ غـير التطوُّع والسَّماح
ولـكن سَقْطةٌ كُتبتْ [3] علينا ... و بعضُ القول يَـذْهب فى الرِّياح
لعمرك إنّنى وبَنى عَـدىّ ... ومَن يَهوى رَشادِى أو صَلاحى
إذا لم تَرْض عنِّى أو تَصِـلْنى ... لفى حَيْنٍ أُعالجـه مُتَـاح
و إنك إن حَطَطْتُ إليك رَحْلى ... بغَرْبِىِّ الشَّرَاة [4] لذُو ارتيـاح
هَششتَ لحاجةٍ ووعدتَ أُخرى ... ولم تَبْخل بنـاجِزة السَّراح
وجَدْنا غالباً كانت جَنـاحاً ... وكان أبوك قادمةَ الجَنـاح
إذا جَعـل البخيلُ البُخْل تُرْساً ... وكان سـلاحَه دُون السِّـلاح
فإنَّ سِـلاحك المَعروفُ حتى ... تَفوزَ بعِرْض ذى شِيَم صِحَاح

بين الجمحى و بينه فى مدحه عبد الواحد

وذَكر عبدُ الله بن إبراهيم الجُمحىّ قال :

قلتُ لابن هَرْمة : أتمدح عبـد الواحد بن سُليمان بشعر ما مدحتَ به أحداً غيره ، فتقول فيه :

وجـدنا غالباً كانت جنـاحاً ... وكان أبوك قادمةَ الجنـاحِ
أعبـد الواحـد المَحْمودَ إنى ... أَغَصُّ حِـذَار سُخْطك بالقَراح

(١) المال : الإبل . والمعزب : الذى يبيت فى المرعى و لم يرح . والمراح : الذى رد إلى مأواه .
(٢) عضلن : منعن . (٣) فى رواية : « عيبت » . (٤) الشراة : صقع بالشام .

فبأى شىء أستوجب هـذا منك ؟ فقال : أُخبرك بالقصّة لتعذُرنى : أصابتنى أزمة وقَحْمة[1] بالمدينة ، فاستنهضتْنى ابنـةُ عمّى للخُروج ، فقلت لها : إنه ليس عندى ما يُقِلُّ جَناحى . فقالت : أنا أُنهضك بما أمكننى.وكانت عندى ناب لى، فنهضتُ عليها حتى دفعْتُ إلى دمشق ، فأويتُ إلى مسجد عبد الواحد فى جَوف الليل ، فجلستُ فيه أنتظره ، إلى أن نظرتُ إلى بُزوغ الفجر ، فإذا البـاب ينفلق عن رجل كأنه البدر ، فدنا فأذّن وصـلّى ركعتين ، فتأمّلتُه فإذا هو عبـد الواحد ، فقُمت فدنوتُ منـه وسلّمت عليه . فقال : يا أبا إسحاق ، أهلاً ومرحباً . فقلتُ : لَبّيك ، بأبى أنت وأُمى ،حيّـاك الله بالسّلام وقرّبك من رضوانه. فقال : أما آن لكأن تزُورنا! فقدطال العَهد واُشتدّ الشوق ، ما وراءك ؟فقلت : لا تسألنى بأبى أنت وأُمى ، فإنّ الدهر قد أَخْنَى علىّ ، فما وجدتُ مُستغاثاً غيرَك . فقال: لا تُرَعْ ، فقد قدمتَ على ما تُحبّ إن شاء الله . فوالله إنى لأُخاطبه إذا بثلاثة فِتْيَة كأنّهم الأشطان[2] ، فسلّموا عليه. فاستدنى الأكبر منهم فهَمَس إليه بشىء دُونى ودون أخويْه . فمضى إلى البيت ثم رَجع فجلس إليـه فكلّمه بشىء ثم ولّى . فلم يلبث أن خَرج ومعه عبدٌ ضابط[3] يَحمل عِبْئاً من الثّيـاب حتى ضَرب به بين يدىّ . ثم هَمس إليه ثانية ، فعاد . وإذا به قد رجع ومعـه مثلُ ذلك ، فضَرب به بين يدىّ . فقال لى عبدُ الواحد: اُدْن أبا إسحاق، فإنى أعلم أنك لم تَصر إلىّ حتى تَفاقم صَدْعك ، فخُذ هذا وارجع إلى عيالك ، فوالله ما سَلَمْنا لك هذا إلّا من أشداق عِيالنا، ودفع إلىّ ألف دينار ، وقال لى: قُم فارحل فأَغِثْ مَن وراءك . فقُمت إلى

(١) القحمة : القحط والسنة الشديدة .

(٢) الأشطان : جمع شطن ، وهو الحبل .

(٣) ضابط : قوى شديد .

الباب ،فلما نظرتُ إلى ناقتى ضِقْت . فقال لى : ما أظُن هذه مُبْلغتك ! يا غُلام ، قَدِّم إليه جَملى فلاناً . فوالله لكنتُ بالجمل أشدَّ سُروراً منى بكُل ما نِلْته . فلا تَلومنِّى أن أغَصّ حِذار سُخط هذا بالقَراح .

بين المهدى وأبيه المنصور وقد قصر فى جائزته

وذُكر أن ابن هرمة دخل على المَنصور فقال : يا أمير المُؤمنين ، إنّى قد مدحتُك مدحةً لم يمدح أحدٌ أحداً بمثلها .فقال : وما عسى أن تقول فىّ بعد قول كَعب[1] فى آل المُهلب :

بَراك اللهُ حين براك بَحراً ... وفَجَّر منك أنهاراً غِزارَا

فقال له : قد قلتُ أحسن من هذا . قال : هاتِ . فأنشده :

له لَحَظاتٌ عن حِفافَىْ سَريره ... إذا كَرَّها فيها عِقابٌ ونائِلُ

فأُمُّ الذى أمَّنتَ آمنةُ الرَّدى ... وأُمُّ الذى خَوَّفْتَ بالثُّكل ثاكِل

فأَمرَ له بأربعة آلاف دِرهم . فقال له ابنه المَهدىّ : يا أمير المؤمنين ، قد تكلّف إليك فى سَفره نَحوها . فقال له المَنصور : يا بُنى، قد وهبتُ له ما هو أعظم من ذاك ، وهبت له نَفسه ، أليس هو القائل لعبد الواحد بن سُليمان :

إذا قيل مَن خَيرُ مَن يُرتَجى ... لمُعتَرٍّ[2] فهْرٍ ومُحْتاجِها

ومن يُعجل الخَيلَ يومَ الوَغى ... بإلجامها قبل إسراجها

أشارتْ نِساء بنى مالكٍ ... إليكَ بها قَبْل أزواجها

وهذا الشِّعر من فاخر شِعر ابن هَرمة ، وأولها :

أجارتَنا رَوِّحى نَغْمةً ... على هائمِ النَّفس مُهْتاجها

فلا خَيْر فى وُدٍّ مُسْتكرِهٍ ... ولا حاجةٍ قبل إنْضاجها

---

(١) هو كعب بن معدان ، من الأزد ، وأمه من عبد القيس . وستأتى ترجمته .

(٢) المعتر : المتعرض للمعروف دون أن يسأل .

يقول فى المديح :

إلى مَلِكٍ لا إلى سُـــوقةٍ كَسَـته المُلوك ذُرَا تاجهـا
تَحُـلُّ الوُفـــودُ بأبوابهِ فتَلْقى الغِنَى قبـل إرْتاجهـا
رَكُود الجِفان غداةَ الصَّبا ويومَ الشَّمال[1] وإرْهاجهـا

هو ورسول المنصور وقد دسه عليه

وحَـكى محمدَ بن سُليمان بن المنصور قال :

وجَّه المنصور رسولاً قاصـداً إلى ابن هَرْمة ودَفع إليه ألف دينـار وخِلعة ، ووَصفه له وقال : امْض إليه ، فإنك تراه فى مجلس كذا من المَسجد ، فانتسب له إلى بنى أُمية ومواليهم ، واسأله أن يُنشدك قصيدتَه الحائية التى يَمدح بها عبدَ الواحد ابن سُليمان :

وجدنا غالباً كانت جَنـــاحاً وكان أبوك قادمةَ الجَنـــاح

فإن أنشدكها فأَخرجه من المسجد واضْرب عُنقه وجئنى برأسه ، وإن أنشدك قصيدتى اللاميـة التى يَمدحنى فيها ، فادفع إليـه الألف الدينار والخِلعة ، وما أراه يُنشدك غيرها ، ولا يعترف بالحائية . وأَتاه الرسولُ فوجده كما قال المنصور ، فجلس فاستنشده قصيدتَه فى عَبد الواحد . فقال : ما قلتُ هـذه القصيدةَ ولا أعرفها ، وإنما نَحلها إياى من يُعاديني . ولـكن إن شِئتَ أنشدتُك أحسن منهـا . فقال : قد شئتُ فهات . فأنشده :

* سَرى ثو بَه عنك الصِّبا المُتخايل *

حتى أتى على آخرها . ثم قال : هات ما أمر لى به أميرُ المؤمنين أن تَدفعـه إلىَّ . فقال : أى شىء هو يا هذا ؟ فقال : دَع ذا عنك ، فوالله ما بَعث بك إلّا

(١) الركود من الجفان : الثقيل المملوء . والإرهاج : الامطار .

ومعك مالٌ وكُسوة ، وأمرك أن تسألنى عن هـذه القصيدة ، فإن أنشدتُك إيّاها ضربتَ عُنقى وحملت رأسى إليه ، وإن أنشدتُك هذه دفعتَ إلىَّ ما حَمَّلك إياه . فضحك الرَّسولُ وقال : صدقتَ لَعَمْرى ! ودفع إليه الأَلف دينار والخِلعة .

قال : فما سمعنا شيئاً أعجبَ مِن حديثهما [1] .

---

(١) وجاء هنا آخر مخطوطة المتحف البريطانى : « والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب .

تم كتاب الأغانى بحمد الله تعالى على يد العبد الفقير محمد بن عبد الله خطيب جامع الشيخ علوان بحماه المحمية ، من كل بلية ، غفر الله له ولمالكه وللمسلين أجمعين فى العشر للآخر من شهر رمضـــان المعظم من شهور سنة ألف ومائة وعشر . والحمد لله على التمام وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام